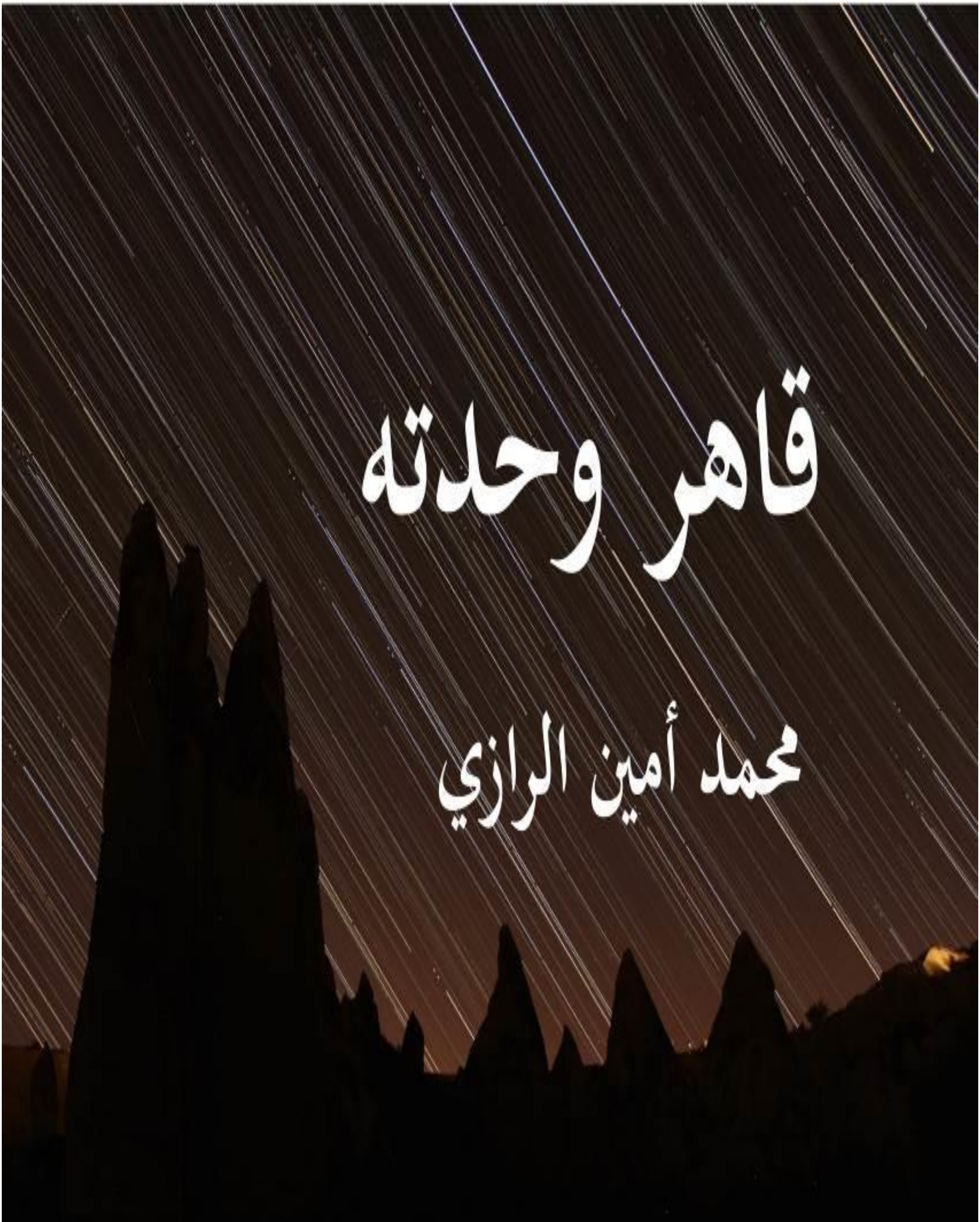
قاهر وحدته
محمد أمين الرازي

إلى كل من هو قهر وحدته !

الفصل الأول

إنه وحيد في مكتبه : يشتغل كمحاسب، مكتئبا، شاحب الوجه، أهلكه الأرق وتصنع السعادة، فأصبحت له ابتسامة ميتة.

يجلس على كرسيه المريح، مطأطئ الراس، خاشع العيون، تلتهمه سكينة حزينة تبعده عن ضوضاء العاملين معه – ثمان ساعات ينتزعها من حياته يوميا ليمنحها بكل عطف الى حاسوب يدخل فيه الفواتير والعقود الخاصة بالشركة. هو لا يريد اشعال حرب مع ذلك الحاسوب والقائه بعيدا - على الأرجح من النافذة، لأنه وببساطة لم تكن له إمكانية الاختيار، فعليه اعالة نفسه و اسرته.

يشتغل ابوه فلاحا بسيطا ،يأكل مما زرعت و حصدت يداه، يتقبل مصيره هذا منذ ان اصبح أبا ! يخشى ان يختلج عقله ان بدل هذه المهنة البئيسة، مهنة العصور الوسطى !

أما الأم ، فقد قطن البكاء بجوار مقلة عينيها، يوقظها في الصباح ، ويلكزها بعد الظهيرة، و يهلكها في المساء حتى تنام ... كانت حياتها مثخنة بالجراح، وما يزيدها ضيما و أسى هو فقدانها ابنها البكر ،الذي هاجر إلى الديار الإسبانية في زورق تتلاعب الأمواج الصارخة من تحته،

وهو يرتجف فوقه كطيف ساحب أجنحته المكسورة - بطبيعة الحال، لن يطير شيء بأجنحة مكسورة ، سيقع على الأرض و يتألم بشدة.

وهكذا ، بعد ان فرغت الأمواج من استراحتها ، انتفضت قليلا فقلبت ذلك القارب راسا على عقب و القت ما فيه من المهاجرين في أعماق البحر .وقد كان آنذاك، الليل باردا ،و الماء مثلجا و الزورق مقلوبا ! ربما حاول أولئك الغرقى ان يتشجعوا و يستجمعوا قواهم ،ولكنهم سيحسون ان قوى الطبيعة دائما ما تخونهم .. و في الصباح ، و بعد أيام .. بعد ان يتخذ الصيادون مواقعهم على الصخر ، ستصطاد صناراتهم اقمشة، احذية وبقايا بشرية.

أما على الجانب الاخر : على الشاطئ، سيكون البحر الشاسع قد أبدى بعض المعروف ، إذ سيلقي بجثث لا لون فيها، هامدة تنتظر كفنا أبيضا لضمها !

لكن البحر لم يبدي معروفه كاملا هذه المرة، اذ ان جثة اخ عماد لم يجدوا لها اثرا ، فلربما اكلها الحوت .. و هذا هو ما سبب لوعة هائلة للعائلة ، و خاصة بعد ان كان يعد امه بانه حالما يصل سيتصل بها ، وبعد أن يشتغل سيرسل لها نقودا تعيلها . لكن الاتصال الذي ثقب مسامعها هو انه 'مات و لن يعود '.

اصبح اب عماد يرتاد حقله و يمكث فيه ساعات طوال ،يقتات على الماء و بعض الفواكه الجافة، يهذب روحه التائهة و سط هذا الكون التعيس ، فمكوثه في البيت يجعله يرى صورة ابنه الفقيد الحائطية والتي ابت امه ان تزيلها ، لذا ارتأى ان الاعتزال هو الحل للتخلص من الامه.

لكن عماد ; ابنهم الحبيب ، حاول ان ينصحهم عدة مرات بأن الاعتزال الذي أصبحوا يحبذونه ،ليس الا زلة وضعوا فيها أعمارهم ; لأن اليأس ينقص من العمر ، و يجوف القلوب .. لكن أصعب شيء أن تنصح جاهلا

متألما، عششت في عقله الأفكار الغبية المستعصية على الواقع، يعتبر الجميع أعدائه ، و حتى ابنه سيعتبره متمردا يحاول عبثا مجابهة القدر و تسييره حسب هواه ،و ان فعل ذلك، ستحل عليه اللعنة و يصبح مسخا أو شبحا.. كما يملي عليه عقله الخرافي .و لكن نصح عماد ما زاد أباه الا طبقة أخرى من كفن الوحدة فترك ذلك في نفسه وقعا سيئا لم يكن ينتظره أرغمه على استعمال ذلك الكفن.

كان يسكن عماد شقة متواضعة ،قياسا الى مهنته كمحاسب، كانت تطل من جهة على الطريق ،و من جهة أخرى على ساحة شاسعة تنبت فيها شجيرات و حشائش كرأس الأجرب !

كان ذلك الغرس شنيعا يبث في النفس الرعب ، كان متفرقا بطريقة توحي أن كل شجيرة قاموا بغرسها عند رأس كل قبر - قبر خفي ،على الأرجح.

و كان عماد متشائما، يطل كل يوم من نافذة بيته على تلك الساحة التي غرست فيها الشجيرات. و رغم أنه كان يتجنب تلك النافذة مرارا، كانت قوى وحدته تتلاعب بخواطره، وتوشحه بالشرود، فيجد رأسه وسط النافذة ! حاول أن يبكي، أن ينوح، أن يرمي بكأس القهوة الساخن على تلك الشجيرات، لكنها لا تتحرك ولا شيء يتغير.

كان يحب أن يسم المحبة والفرح على صدره بدل التأوه والتنهد لكنه لم يعثر على طريق لذلك.

وكسبيل للتخلص من تشاؤمه; قرر التخلص من تلك الشجيرات المبعثرة وذلك بأن يعطي البستاني الذي يسقيها كل يوم رشوة، فيسكب عليها سما أو يتركها تذبل ببساطة. ولكنه عندما دنا منه رأى في وجهه وجه أباه الفلاح البسيط لذلك لم يشأ ازعاجه فتراجع...

كان عماد بين زملائه مرموقا، يحب بعضهم ويحبه كلهم، لا يكلمهم الا إذا ما كلموه. كان يجلس على مقعده متهالكا ،و ضعفه يتزايد بوضوح

يوما بعد يوم ،و بات يضعف من أن يضبط نفسه أو يقودها الى حيث يريد، فحينئذ ستنفذ طائفة من الأفكار السوداوية الى قرارة نفسه فتفسدها.

وإن أكثر ما كان يزعجه و يعكر صفوه طول الثمان الساعات ، و يطفو في ساعات ابتهاجه إذا ما حط عصفور تائه على نافذته ، أو إذا ما اقتحمت ضحكة عابرة شفاهه .. والذي أصبح يضطر الى وضع حد لهذه الحال ; فقد كان ذلك زميله إسماعيل، الذي يتكلم في أمور تافهة لساعات ويعثر على ضالته في ذلك رقية السكرتيرة المستعدة دوما على مشاطرته الترهات...

الان، هما يتناقشان.. يخوضان حربهما الخاصة حول الولادة، وما همهم بهذا؟ إذ انهم ليسوا بمتزوجين ولا حبيبين ولا حتى أصدقاء. فحالما يخرجان من باب الشركة لا ينظر أحدهما للأخر.

-" إن النساء حالما يتجاوزن سن الأربعين لا يمكنهن الانجاب، و حتى إن فعلن ذلك فسينجبون وليدا مصابا بمتلازمة 'داون' ." تقول رقية وكان ثمة شيء يحرق أعصاب عماد ;وهو هذا الصوت الذي بدا لتوه في الاحماء.

قال لها إسماعيل بسخرية:

-" أو تتكلمين عن نفسك؟ "

-" قطعا لا، لم أصل الأربعين بعد .. انا ما زلت شابة في سن الثلاثين!"

-" أووه، ماذا تقولين! انني أعرف تاريخ ازديادك، و الأن،.. سيكون عمرك ستة وتلاثين سنة "

-" على كل حال، لم أصل الأربعين " تقول بسذاجة

حل سكوت لم يدم طويلا، حتى انطلقت رقية بأسئلتها الفارغة:

-" أتقرأ المجلات ؟"

-" لا ،أنت تعرفين ذلك "

-تبادر قائلة :" إذن ، لقد قرأت في أحد المجلات ..." ثم يقاطعها إسماعيل قائلا: " لقد قلت لك إنني لا اقرأ المجلات، ألا تسمعين؟ ... ولا أحب قراءتها أيضا ،تشعرني بالغثيان لما تحتويه من أخبار ملفقة"

- "لا، أنا لم أطلب منك قراءتها .. انني .. قرأت أن الرجال ينقص عددهم باستمرار، فلربما العالم ذات يوم سيصبح أعزلا بدون رجال ! "

كان إسماعيل المتملق ،يشعر بالإستياء و الغباء الذي يستحوذ على هذه المسكينة التي تلتهم شظايا الحب و الزواج خاصة روحها و عقلها. وإنها مثل معظم النساء اللواتي يحصلن على وظيفة ،أكثر شيء قد يقال عنها أنها لا بأس بها. تنعكس نياتهم الصالحة إلى نيات طالحة تدحرهم بدون عناء. فهن يشعرن بأنهن مرغوبات من طرف الجميع! وأن طباعهن تتناسب طردا مع جهلهن الحياة ،لا يرون أبعد من الجمال و من المال والحظ ،فتبقى انفسهن عزيزة ،حالمة بين مجموعة من وجوه رجال يعانين في الارتباط بهم ،و ذلك لأنهن يردن الحرية و التحرر و تلك الترهات التي تحفر قبورهن بأظافرهن.. فيرسون بعد ذلك على فكرة واحدة ; و هي أن الرجال كلهم سواسية يحبون في الأول و يكرهون في الاخر ،دائما ما يملون ،أحاسيسهم متقلبة...

و عندما يجتمعن، يبدأن في سرد حكاياتهن الخرافية التي عملن جهدا كبيرا في تخيلها و نسجها على أكمل وجه. إذ تجد إحداهن ترشف من كأس عصيرها البارد ثم تتلوى في كلامها :

-" لقد ذهبت أنا و حبيبي عمر إلى البرازيل الإجازة المنصرمة "

و أقل شيء قد يقال لإفساد لحظتها هو :

-" أريني بعضا من صورك " تقول إحدى صديقاتها

فتجيب حتما لأنها درست الجواب بتفان :

-" إن حبيبي عمر متشدد بعض الشيء ،هو الذي احتفظ بالصور.. أيضا لا يحبذ مشاركتها مع الغير ، سيكون ذلك نذير شؤم على علاقتنا ! "

فيزحف سم الغيرة في أوصال صديقاتها ،لأنها فاتتهن دهاء، فيبحثن عن هفوة أخرى للإطاحة بها ،فتنطلق الغبية الفهيمة بسؤالها قائلة :

-" و ما عاصمة البرازيل يا حبيبتي ؟"

فتجيبها: " أو تمزحين..؟ إنها الجامايكا "

و هنا تعشش المشكلة ،لأن التي طرحت السؤال لا تعرف عاصمة البرازيل أصلا ! و بسبب عقلهن الصغير اللواتي يعتبرنه كبيرا ،تجدهن حصرن أمريكا اللاتينية كلها في البرازيل، فلو أجابت بكلومبيا لأقتنعت تلك الساذجة ! و بالتالي لن تملك إلا تحسرا عن صديقتها التي يسعدها حبيبها في الجامايكا أو البرازيل.. ،هي لا تعلم بالطبع .. لكنها ما تعلمه يقينا أنها لن تنام تلك الليلة بسب التحسر . وكذلك كانت رقية ،كانت من ذلك النوع الذي ينظر أمامه ،لا يتجاوز قياس خياله، و لو تجاوزه لتاه ولبكى تحسرا !

فيقول لها إسماعيل :

-" يا غبية، انني لا أحب التكلم في هذه المواضيع .. فقط فكري ،من ضمن أن تعيشي حتى يمسح الرجال من على الأرض؟"

-"أممم..."

في الحقيقة، إن إسماعيل هذا لا يقل فظاعة عن غبائها، لكنه و لحسن حظه وجد رقية أكثر غباء تشاطره التفاهات بصدر رحب، وتستمع لنصائحه البليدة المليئة بالكراهية و عدم الثقة - بصراحة قد يبدو كلامه منطقيا في بعض الأحيان، لكن سرعان ما يسخن رأسه لتفقد قرارة نفسه التحكم في كلامه ، فيبدأ في إلقاء عباراته الباهتة حين يضيف قائلا :

-" أنا اضمن لك شخصيا، أنك لن تعيشي حتى يضمحل الرجال ، لأنك الأن، في عمر السادسة و الثلاثين و لم تتزوجي بعد ! .. سأزيدك تلاث سنوات أخرى و لن ينظر إليك حتى حارس العمارة "

-" و كأنني ابه له " تقول رقية متكبرة

أراد إسماعيل أن يظهر لرقية الواقع، لأنه قرأ ذات مرة في أحد الإعلانات لشفرات الحلاقة أن الواقع هو الوجه الحقيقي للإنسان و أن الواقع هو تلك الشفرات أو شيء كهذا ..، فصاغ عقله البليد تلك الجملة، فباغت رقية بكلامه :

-" إنك الأن عانس، و لك حظوظ قليلة في الزواج و لربما ستموتين قبل أن تتزوجي.. أنصحك ،بكفالة طفل تحسبا ! "

فقاطعته : " من تحسب نفسك؟ " و كأنها ستوجه له صفعة او لكمة إلى فمه للسكوت مرة و إلى الابد " أتشك في قدراتي، إنني ما زلت مغرية، جميلة.. أنظر .. قد أضرب عشر مواعيد في اليوم ومع من أردت، بمن فيهم أنت، لكنني لا أكن تجاهك أي شعور بالغرام "

-" اووه، عشر مواعيد غرامية ! لا تظنيني أحد صديقاتك اللواتي انعرجن عن سكة الزواج فدحرن عن وجوههن ،و غطين ذلك بمساحيق التجميل السخيفة، إنني أعرفك جيدا و أعرف جهدك "

ثم يعم هدوء رهيب يشعر عماد لوهلة بالراحة حتى تندفع رقية ثانية :

-" انني أمزح ; لكن تذكر هذا جيدا ،بعد سنتين من الأن ،إن لم أجد ما أحبه من الرجال، سأرضى بك "

تقولها و تظن أنها جذابة و أنها أميرة الأميرات، و قد كانت تقول نفس الكلام منذ أن بدأت تتعرف على إسماعيل و تشاركه الحديث، و ما أن تمر سنتين حتى تعزي ذلك الى ارتباطها بأحد الشبان أو أنها تستحق فرصة أخرى - في كل الأحوال كان سيجيبها إسماعيل ب 'لا' فتنتظر منه أن يترجاها او شيء من هذا القبيل، لكن دمعها سينوب عن ذلك.

و بدون شعور بالذنب ،أجابها إسماعيل :

-"ترضين بي ؟... إن عماد قال لي ذات مرة أنك تضعين العطر نفسه منذ أن اشتغلت في الشركة "

لم يتسنى لرقية الإجابة، إذ أن كلام إسماعيل ظل هاجسا عنيدا يحرك عواطف عماد.. فانتصب ثائرا، يحدق في وجهيهما اللذان اعتلاهما الذهول و البلاهة في ان واحد ،ثم قال :

-" ماذا عساني أقول، لقد ذقت ذرعا بمحادثتكما الفارغة يوميا، وأنا لا أريد المشاركة فيها عاجلا أم اجلا.. اتركوني و شأني و لا تجروني في تفاهاتكم "

و ما عاد يجلس عماد على مقعده حتى عم السكون الارجاء بسبب كلامه الذي رددته جدران المكاتب في دوي كأنه زلزال يهز الاذان –اذني إسماعيل و رقية خاصة. و في تلك اللحظة، سكتا و تملكهما الخزي على تصرفهما ذاك ،ولم يملكا سوى أن يقدما كأس ماء لعماد بيدين صفراوين، بينما مئات الأفواه تهمس و تضحك ضحكات كئيبة ! لكن هذا كله لا يكفي، لأنه يحدث كثيرا ،فأصبح يحدث عادة أو طقسا يقومون به مرتين في اليوم على الأقل. إذ إنه بعد ساعات قليلة، انبعثت تلك المحادثات التي لا

يطيقها عماد ، و أخذت تتصاعد حدتها شيئا فشيئا حتى تدق ناقوس الخطر مرة أخرى ، حتى يدخل المدير أو ينتفض احد الموظفين بكلام لاذع.

و على ذكر المدير ،كان جميع من في الشركة يهابه، هيبة ليست طبيعية. فقد جاء للشركة و لديه موهبة غريبة تحثه على أن ينتقد الموظفين ، مع رغبة شديدة في ألا يعاكس هذه الموهبة ،إذ يدلف على الموظفين و هم غافلون، فيدنو من أحدهم و يخلع نظاراته السميكة ليشرع في مسحها بمنديل من صنع الشركة . وفي اللحظة عينها ،يكون ذلك الموظف عاثر الحظ يتصبب عرقا باردا على جسمه يلسعه ويجعله يتأوه خفيا.

فيبقى المدير على تلك الوضعية نصف ساعة أو أكثر، و كأنه في اختبار للتحمل ، يراقب أي حركة على المكتب ، بعينيه اللتان تستغرقا وقتا طويلا لالتقاط الصورة و فحصها .

بعد برهة، ينشر مرحه بثقة مندوبة ، إذ يلقي أحد الدعابات السيئة على ذلك الموظف الذي يضغط بقوة بيديه المجعدتين خوفا على فأرة الحاسوب. فيقول المدير :

-" إنك تعمل ببطء .. هل ازعجك؟"

-" قطعا لا يا سيادة المدير " يجيب بارتجاف

-" اذن سأبقى ! " ثم يجر كرسيا ليقبع بكل برودة دم قرب الموظف الذي يصهل من وقت الى اخر ،فتجيبه نفسه بصداها الحار .

كان المدير لا يبدي حراكا ،كأن دفء الكرسي دب فيه الكسل ، لكن وراء ذلك الزجاج السميك لنظارته تظهر عينان صغيرتان و كأنهما جامدتان ! و لكن الخدمة تكون منتظمة ، إذ أن تلك العينين الجامدتين تقودان مبصرة في جميع مكاتب الموظفين و تلتقطان كل صغيرة وكبيرة ببطء لا متناهي.

بعد هنيهة، يمرر المدير يده على رأسه الأبيض ثم يضعها على المكتب

فيتنهد. يهز عينيه فيرى عيونا خفية مصطفة تسرق النظر بعناء، بل إنها تحاول التنبؤ بما يحدث ; إذ غالبا ما تكون رقبة الموظفين منتصبة ووجوههم قبالة شاشة الحاسوب ،أما أعينهم فليست في المكان الصحيح :جاحظة كأنها تحاول الخروج بجنب من مكانها !

و إن ما كان يضع حدا لهذا الترقب الصامت، اللاذعة فعاليته، هو مكالمة من زوجته التي تهاتفه على هاتفه الخاص، فلا يتردد في إجابتها ،إذ ينهض مضطربا ،ليهدج في خطاه إلى مكتبه ليكمل المحادثة، و اللعاب يسيل من فمه ،فيجد هذا الأخير الذي ظلم نفسه منديلا يشطفه في لمحة عين.

لم تحضر زوجته إلى الشركة يوما ،لكن اسمها كان حاضرا دوما، إذ خلال رحلة الانتقادات و الملاحظات التي يقودها المدير في سلسلة المعاثر حتى يتخلى عن دور القيادة، يتوقف، يبرح في مشاعر الحب التي تثيرها فيه زوجته فيه ، فيبدأ في قوله :

-" إن زوجتي تراعي صحتي ، فهي تحضر لي قهوة لا يصنعها الماهر فيكم ، و تضع فيها نسبة سكر ملائمة "

فتقاطعه دوما السكرتيرة التي تحضر له القهوة الصباحية :

-" سيدي المدير، إنني أراعي مرضك، إنني أضع قرب فنجان قهوتك أكياسا من السكر فضع منها ما تشاء ! "

يحدق فيها بعينيه الصغيرتين المترهلتين جفونهما و قد أحس بنظراتها، نظرة المرأة الناضجة الشجاعة التي تواجه المدير .

و لأنه لا يريد أن يكون أخرقا أمام موظفيه ، يسعى إلى ثقب ذلك الصمت المروع و قلب اللحظة إلى صالحه . ولكنه معروف أن النزاهة تسقط أمامه ،فسرعان ما يحمر وجهه و يشفط لعابه ثم يتحضر الى عبارة منمقة

تقتضي بمعاقبتها أو طردها .. و لكن ما إن ترى تلك السكرتيرة الفنانة، الذكية ربما، ملامح وجهه المقطبة حتى تفهم الوضع بذكاء غريب و غريزة مدهشة فتقول له :

-" اعذرني سيدي، لقد نسيت أن أضع لك السكر بجانب فنجانك البارحة و اليوم أيضا ! "

-" إذا هكذا.. ! " وقد بدأ نفس صدره المنتفخ يتراجع شيئا فشيئا.

و ذات يوم ، وسط ذهول الموظفين، كانت رقية ضائعة في مسالك حياتها، تخنع رأسها ذليلة و لا تقدر على رفعه و التحديق في وجه المدير البعيد عن الاقتباس.

كانت تبكي بحرقة ،تشهق و تبكي بطريقة محزنة مزرية ،وويل لها أن تحدث صوتا . كانت دموعها تسيل من جميع ثغر وجهها : عينيها ،انفها و فمها ,قدم لها منديلا، لم تستعمله ، لم ترفض و إنما هي لا تحتاج شفقة في وقت بؤسها ،فاكتفت باستعمال أكمام سترتها الصوفية التي تشطف العرق و الدموع بامتياز ،لكن لا جدوى . مازال الدمع غزيرا، يسيل .. و قد بدأت العروق الحمراء الانتهازية بتعكير بياض عينيها .

أما إسماعيل فكان خجلا، وجلا، لا يحرك ساكنا . هو الأخر أخنع رأسه ذليلا لكنه لا يبكي ،هرعت إليه رجولته في الوقت المناسب ،لكنه ود لو يختفي ، لو يهرب من الشركة لأنه لم يعد يعرف ما يقول و لا ما يفعل.

كانت الموظفات الأخريات يبتسمن خفية ، يتراسلن .. ينسجن مسرحية مثيرة للشفقة من وراء ظهريهما . لكن قد يقال أن إسماعيل و رقية هما البطلين . فبدون أن يشعرا دحرا على خشبة المسرح، فأيقظهما تصفيق الجمهور ، ولما التفتا بجانبيهما وجدا نفسهما في وضع يرثى له، لقد كانا في صندوق زجاجي شفاف ! أدخلا فيه خلسة بدون أن يعلما من الأمر

شيء . ذلك الصندوق صممه الحسد ، فوضعهما فيه آنسات أو سيدات يشتغلن معهما ،يعتبرنهما في مقام الصديقة و الأخت و الخالة !

لكن من؟ من أطاح بهما ؟ و قد انطفأ في وجوههن الحنان و الرضى ، وذبلن من الإرهاق و انفعالات الحياة ، فأصبحن يلطخن كل يوم مساحيق بيضاء تملأ ثغور وجوههن و تمسح زرقة شفاههن التي ما أنهكتها السجائر ، و إنما الحسد الذي يسحب الدم بغزارة فيكدسه في كل موضع حساس ، في كل موضع جميل ..

و كما هو الحال، فقد كان إسماعيل و رقية حميمين في كلامهما، متباعدين في علاقتهما ، و الجميع يعرف ذلك . ولكن سوء الظن ، دائما ما يقبع بجوار الناصية، يعكر صفاءها، ليسدد رميه مرة تلو أخرى، وكذلك انهالت الشكايات عليهما ، و التي ما لبثت أن و صلت ساخنة إلى المدير الفظيع ; الذي أطفا هاتفه و مسح لعابه و استعد للحظة الملحمية، لحظة القرار و توجيه مصير الشركة.

-" لقد تلقيت شكايات عديدة بخصوصك أنت و إسماعيل .لقد أصبحتما تزعجان الموظفين يوميا ! (بصوت عال) " يخاطب المدير رقية.

-" اعتذر يا سيدي " قالت رقية و هي تندب خوفا.

و كعادة سيئة يقوم بها المدير في وقت الجد: يلحس أسنانه الامامية بطرف لسانه ثم يباشر بكلامه الحكيم :

-" لماذا عندما وقعت قدمك الشرك تعتذرين.. إنه لا يفهم الاعتذار وأنت تعرفين ذلك. سيقطع جزءا من قدمك، وقد تترجيه، تطلبيه ، تسقطي عنده باكية تنوحين و لا يسمعك . لأنه أصم بطبيعة الحال ; إنه شيئا ما موقر مثلي يكبح رغبته في الصراخ و إعطاء الإنذارات ، لكنه يصدر صوته مرة واحدة ، إذ يرغم على ذلك ،و ذلك حينما يصيدك ،يضعك في ساحته...

و إن أكثر معروف قد يقدمه لك هذا الشرك هو أنه لن يمس قدمك الأخرى. إذ يرجع إلى وقاره المألوف، فيتركك تتصارعين وحدك مع رجلك العالقة "

ثم توقف المدير قليلا ليضع سيجارته في فمه ،بين شفتيه المرتحفتين .. فينفث دخانها الحار الذي يوخز جفون رقية ثم يستأنف حديثه :

-" إن الشرك كريم بعض الشيء.. يضعك أمام خيارين :

إما أن تتصارعي معه فيغلبك حتما و تبتر قدمك ..

إما تفتحي فاهه بلباقة و تخرجي ما تبقى من قدمك لتصليحها إن استوفت إصلاحا ! "

بعد هذا الكلام ، أصبحت رقية تبدو كمرأة مسنة تبعث على الضحك. وقد اختلطت دموعها بتلك المساحيق الكيماوية التي تضعها ، فبدا على وجهها كأنه ملطخ بالبراز !

بقيت صامتة ، فلا الندم و لا الاعتذار و لا التحسر ينفع الأن .. إذا فلتسرع بأخذ أحد الفرضيات التي يمنحها الشرك محبة خالصة قبل أن تتعفن قدمها ثم ساقها ... ثم إلى ما لا تحمد عقباه .

يثقب المدير هذا الصمت المروع بمسح نظارتيه ثم يقول :

-" إنني ...في الحقيقة ،أتمنى أن أكون ذلك الشرك "

أخذت تعود رقية الى حالتها الطبيعية .تفرك عيناها بأكمامها ، وقد ساد القلق أولئك الموظفات الواشيات اللواتي استطعن أن يسببن لها العجز والمذلة ، ووضع روحها، منصبها و ايمانها على المحك أمام المدير ; ولأن المدير له يد واسعة في مجال المقاولات فقد يسد عنها كل طريق، عقابا لها.

لقد رأت رقية في حياتها مجرمين حقيقيين يموتون بشجاعة ،و التي تعتبرهم الأن أفضل من هذا التحالف النسوي الذي انبثق من ظلها لطعنها طعنا ظاهريا .

ومن المؤكد أن رقية بدأت تستعيد بعضا من ثقتها الخرقاء حين قالت :

-" سيدي المدير، أنت تفهم وضعي ،إنني أعيش حياة متواضعة بسيطة و مخلصة، مخلصة في عيشي وفي عملي . لا أقتفي أثر الناس فأكيد لهم أو اؤذيهم... إنك تعرف تصرفي منذ ثمان سنوات ،إنه لائق. أليس كذلك ؟ "

ثم بدأت تدخل قلبه شيئا فشيئا حين أضافت :

" أنا أعاني ديونا كثيرة ، وأحتاج الى تسديدها و إعالة نفسي.. لقد تعذبت عذابا مكبوتا ،وحيدة ،هادئة في منزلي ،لا يراني أحد و لا يعلم بي أحد أتمرغ في صمتي و أشكي الامي إلى ربي . لقد أصبحت أشم رائحة الشيخوخة، التعاسة ... في عظامي "

و قد ظلت على شكواها هكذا لوقت ليس بقصير،وكانت لها رغبة كبيرة في أن تقول بدون أي تماطل أنها وصلت عنوسة يقينية ،لذا فإنها تحتاج رجلا ! أحضروا لها رجلا بحق ... ! و ستصمت و تلتزم في عملها.

لكن المدير صارم في أفعاله، يحدها هنا ،لن يتركها توسخ رأسه بحديثها المزري فيقول بحنق :

-" أنا لست شركا بالفعل ،لن أسحق قدمك و لكنني ... مصيدة فئران ;أتربص بهم ثم اطبق عليهم "

يا أسفاه ! لقد أصبحت فأرا الان ، ذاك الوجه البريء العانس الملطخ بالدموع و مساحيق التجميل أصبح فأرا الان ،فأرا طويل الوجه و له شوارب ، فأما طول الوجه فهو طول الدهر ،طول عمرها ،أما الشوارب

فهي كل كذبة ألفتها مسبقا على تلك الموظفات اللواتي يضحكن أمامها علنا ،و يتشفين فيها .

فتجهش بالبكاء ،يهتز جسمها و تنتفض مذعورة من مقعدها ،فتبدأ في جمع أشيائها : حقيبتها، مراتها، علكتها، وثائقها ... ثم تهم الى الباب . فيصيح المدير :

-" ماذا تحسبين نفسك فاعلة ؟ ! "

لا تجيبه ،إذ تلتفت نظرة الى الوراء لتستقر عيناها عليه ،ثم تستنشق سيلان أنفها فيهتز جسمها ... فيخيل لذوي الأعين الصغيرة والنظارات الكبيرة أنها هزت كتفها ،و أنها تريد احتقاره أمام الموظفين ،فيبدأ في سبه لها :

-" إن المرأة التي تهز كتفها علي ما زالت لم تبصر النور ... ألا تعلمين انه يمكنني إغراقك ،إغراقك حتى الأذنين في المتاعب ،و سد كل باب عمل في وجهك يا أيتها الحقيرة ! أما الان ، سأسمح لك بالانصراف، لذا ارني ظهرك و لا تعودي مجددا ! "

ثم ينادي حراس الأمن اللذين كانوا قد وقفوا مسبقا بجانبه ،فيرفعوها كحاوية قمامة تصدر رائحتها الكريهة لتزكم أنوف المدير. و في اللحظة عينها، يرتمي إسماعيل على يدي مديره الذي سحبهما من بين شفتيه بسرعة، يستنجده و يستلطفه :

-" يا سيدي ،اقسم بالله انها لم تهز كتفيها ، و انها لا تريد الا الصلاح لهذه الشركة والسير بها الى الامام ،أرجوك لا تسيء فهمها، فهناك سوء فهم يا سيدي، هناك سوء فهم ... "

بإشارة منه ،ينتزعه حراس الأمن كملقط من على بنطلون المدير الأملس البراق.

سار المدير بخطوات واسعة و يده في جيبه، ثم استدار بغتة نحو عماد وهو يسأله ،مع العلم أنه يعرف علاقته المتوترة بهما.

-" ماذا تظن... يا عماد ؟ قال المدير.

بدأ عماد يهوي في مشاكل من لا يحبذ رؤيتهم ، قلبه يهتز ،يفكر ثم يقول في نفسه "هل حان الوقت للتخلص من أحد مصادر الازعاج ؟ " نعم، إنها اللحظة المواتية !" "إن المدير يثق في ... قد أحصل على ترقية " وبدأت ملائكة السرور تحوم حول رأسه و تملي عليه خطابه الاتي بحذافيره. و لوهلة ظن أنه يقوم بعمل ضروري يستحق المديح ، اذ رفع عينيه الواسعتين دهشة في وجه مديره ثم قال :

-" إنها مناسبة ! " ثم سكت قليلا، يضرب جبينه بكفه ثم يصيح : " اووه،.. لا أقصد ، إنها اللحظة... "

فقاطعه المدير قائلا :

-" نعم ، سأفكر.. أنا أيضا أراها مناسبة "

يرتجف عماد في مكانه و قد ارتكب غلطا سيتبعه فرسه الكئيب أينما حل و ارتحل ، سيهلكه و يخرق صدره و يحيط بجوارحه كسلك شائك يثقبها ! فاللحظة ، اللحظة هي التي مناسبة ،ليست رقية ... من أين سيأتيها التناسب؟ و هي تبعث القرف في النفوس بوقفتها تلك. و لكن نفسه أفرجت عن صمتها ، وذلك لأن الوحدة خرقتها مرارا ، فجعلتها كغربال بعيون واسعة ! و يحدث أن الكلمات التي تهمسها شفاهنا في السكينة تصير على غير معرفة منا حديثا علنا.

كان كلام عماد قد منح رقية شيئا من السعادة ،ثم قال لها المدير بصوت حسبته صادرا من غيره :

-" سأوقف راتبك لمدة شهرين !"

و ماذا ستفعل ; ستقفز ،ستزغرد ،ستبكي ... لقد قرأت في عيون مديرها التي لطالما تأملتها بعنف و قساوة ،أصبحت تبعث نورا يملأ القلب انعطافا . و في اللحظة نفسها، كيفما قلبت وجهها في الموظفين ارتطمت بوجوه كالحة ،خائبة ،مات كيدها ،تحمر تارة و تبيض تارة أخرى ،و قد سدت أفواهها التي غمرها الرثاء قبل قليل على رقية ، فأصبحت ترثي نفسها ،غارقة في بؤسها ، في ألامها الشرسة التي ستحرم نومها و تجعلها في ما بعد مفضوحة أمام كل صغير و كبير في الشركة! .

كان عماد أمام مكتبه ينظر بازدراء الى رقية تارة و إلى وجوه التحالف النسوي تارة أخرى ، و في تلك الدقيقة و جد الدمع يتلألأ في عينيه ; فلم يكن ذلك لا دمع الشفقة و لا الإحسان إلى رقية ، و إنما دمع الحسرة والندم الذي يغلب العواطف و يجعلها مستسلمة له .

بدأ يلفت الانتباه بتصرفه المهموم ، فجلس على كرسيه في مكتبه ، يحجب وجهه عن الأنظار بشاشة الحاسوب.

الفصل الثاني

كان عماد في منزله، في مطبخه، يتناول عشاءه . فتح علبة السردين المعلب ثم وضع ما فيها في صحن متسخ يحمل بقايا طعام ل لأيام مضت ! وضع القليل من الزيتون فوقه ثم شرع في الأكل ، وما ان فرغ من طبقه، حتى نهض وترك فتات الخبز مبعثرا على الطاولة كأنه ينوي إطلاق طيور الحسون خاصته لالتقاطها ، لكن تلك الطيور المسكينة لن تأكل ذلك الفتات. بصراحة، لن تحتمل -إذ إن أقل شيء يمكن أن يقال عن تلك الطاولة أنها نتنة !

جلس على أريكته ، ولم يكن هناك أبعد عن خاطره من مشاهدة فيلم مغربي اليوم الموالي ، إذ سيكون ذلك الأحد .

و ما عساه سيفيده هذا الفيلم ؟ إنه يريد تواصلا حقيقيا مع الناس ، الضحك معهم و الحزن معهم ، لا تواصلا مع ضوء مسلط ،يتحرك فيه أشخاص يدعون أنهم ممثلين و أنهم يؤدون فيلما ، فتملكه شعور عجيب ، لأن الأفلام المغربية دائما ما تكون بلا نهاية !

و ما زال لا يعرف السبب . ببساطة، قد يموت أحد أولئك الأشخاص الحاملين لاسم ممثل فيضطر المخرج لقطع الفيلم و عرضه إلى حين اللحظة التي وصلها التورناج...

و لكن في كل مرة؟ في كل مرة سيموت هذا الممثل ؟

هل تلك الكاميرا التي تصور المشاهد تطلق اشعة سرطانية تدمر الخلايا ؟ اذن فليضبطوها على أن تطلق ذخيرتها ببطء لتتناسب مدة الفيلم حتى يصبح بنهاية جميلة .. أو بئيسة ، لا يهم ،فقط نهاية .هذا ما يريده الناس ! هكذا كان يفكر عماد .

لكن ما أربكه في هاته اللحظة هو لون أظافره الذي أصبح ورديا ، كأن الدم انسحب منها ! لكنه يرفض كل ما يراه أمامه ، لا يعرف كيف يحدد ذلك ! ليس هو من يتخلى عن تلك الأشياء : سريره ،طاولة مطبخه، حاسوبه... بل هي التي أصبحت تتخلى عنه ، ترفضه ، تهرب منه في صورة بيضاء أبهمها السواد .

أخذ يلتقط أنفاسه شيئا فشيئا ، و هو مصطلك الأسنان ، مرتجف اليدين ، فمه جاف و أحشائه حارة . هذا التغيير، هذه الدوخة التي بدأ مفعولها يسري بعد أن سقط الظلام و دخلت ليلة الأحد .

يتأمل ، يتحسس أسنانه ، فمه ،رائحة فمه بالأحرى ،كانت كريهة يسودها طعم السردين ،لكنها رائحة قوية لم يعهد لها مثيلا.

دخل المطبخ، كانت الطاولة تعكس إحدى خبرات بيكاسو في تصوير الطبيعة الجامدة الحزينة ،فحص التاريخ على العلبة ،ما زال لم ينتهي! هرول إلى أريكته بخطى متثاقلة ، و في طريقه التقط قدرا على الفور ،بدأ في التقيؤ فيه . كان يحس بخطى حشرات تدب فوق جلده، كأنها ترتمي الواحدة فوق الأخرى ،لاسعة إياه بثقلها .

ما زال لم يعرف ما أصابه؟ و لا من أين أتى هذا المرض الغامض؟ يبدو و كأنه شاخ فجأة ،.. لا يعرف . شرب القليل من زيت الزيتون ، ثم اضطجع سريره ، كان العرق يداهمه، من بين يديه و تحت الغطاء ، مع أنه لم يغطي إلا رجليه . يشعر بارتفاع الحرارة دون شعور بالحرارة، يمسح جبينه المتعرق و يلهث ، و لكنه شيئا فشيئا ، كان يندمج مع نفسه الأليمة فيصبح صامتا ،ساكتا .. حتى أغمض عينيه .

و في الوقت عينه، صاحت مخيلته تذبحه ، يحلم بعالم تتقاذفه الأمواج ، عالم يسطع فيه خرير المياه قويا، متراكضا، نداءات ونداءات، صوت واحد مألوف يثقب صمته و يهيم وسط البحر، وسط الرياح و رائحة الماء

المالح ليصل أذنيه على عجل. لكن هل كان ذلك حلما ام يقظة؟ البحر بعيد عن شقته بعد الحب عن روحه مشيا على الأقدام ،إذ كان يسكن تلك الشقق الصغيرة في ضواحي مدينة طنجة.

كانت الحرارة تضغط على عينيه إغماضة طويلة و تغرقه في صمت أحلامه المسكون بتلاطم الأمواج و عنفوانها .

لكن لماذا البحر يهيج في تلك اللحظة ؟ لماذا يرسل أمواجه انتقاما لعماد؟ لقد دخل البحر ،الماء يصل صدره ! لكن الماء حار، يقف عماد كروح تائهة في لجة النسيان فوقه فراغ و تحته فراغ ، لا يجذف ولا يغرق !

بغتة ، يكتشف ما الذي شمر ذراعيه و أدخله البحر ، إنه يسمع من جديد صوتا، نواحا بعيدا ، نواح شخص يغرق ،يصعد الموج فوق رأسه .

وفيما هو يجذف بيديه الثقيلتين للاقتراب من الغريق حتى ارتمى الضباب على هذا الأخير ، ضباب أبيض وسط ظلمة الليل الحالكة يلفه . توقف عماد لعجيب ما راه ، كان الصوت واضحا ! انه يعتذر... فتساءل من ذا الذي يعتذر و قد تحالف اندفاق البحر عليه .. لا بد و أنه يموت ،إنها ارادته الأخيرة يقول :

-" إنك مدين بصدقي، أستطيع أن أقول لك إنك ستلقاني!! "

و تضاءل الصوت شيئا فشيئا ...فاختفى الشخص.

استفاق عماد مذعورا ،عيناه حمراوين و فمه يسيل لعابا بطعم السردين و يحس بلسعات لإبر توخز حلقه .

اندفع نحو مطبخه، تناول كأس ماء ،ثم هدج إلى نافذته ،يطل منها على تلك الشجيرات التي تعد تعديا على جمال الطبيعة ،يرمقها بعين ناعسة وحيدة أما العين الأخرى فيرى بها اجتياح البحر تلك الساحة فيقتلع كل ما فيها من جذوره ،فيغسل ذنب أفكاره و يخلصه من وضاعة حلمه !

يتفل عن يساره ثلاثا و يستعيذ بالله ، لكنه ما زال أمام النافذة . يرى تلك الساحة مائية ،رغوة البحر تطفو فوقها .. لا أثر لتلك الشجيرات ،لا أثر لمخاوفه.

بيد أنه في الوقت نفسه ،كان يزدري ذلك البحر الذي لم يغرقه فيخلصه من بؤس وحدته. لكن لماذا ؟

في الواقع ،عماد لم يتمتع في حياته لذلك فهو لا يعرف الكلمة حقا .قد يكون رأى شيئا من الحب في حياته لكنه سرعان ما خضع لإرادة المحي، فغاب عن ناظريه كجندي يرى أبنائه مرة في ستة اشهر ، و قد لا يراهم أبدا ! لذا فإن عماد لن يتعب من إحصاء المتع التي حققها ، لكنه سيتعب في عد المتع التي تطلع لتحقيقها.

و في تلك اللحظة الممزوجة بالخيال ،كان يستطيع بلوغ ذكرياته بشكل فعلي ،يرجع إلى صباه فيرى أمه تحضر له خبزا شهيا تفوح منه رائحة الحطب ،يلتهمه بشراهة ويضحك، يأتي أخوه الذي جذبته الرائحة فيقاسمه الخبز ،يضحكان ويلهوان ...

و ما هي الا ثواني حتى يلقي عماد بتلك الكأس بمرارة ،لأن تلك الذكريات اللعينة تذكره بأخيه الذي يتخذ معالم واضحة في كل ذكرى من ذكرياته... ترجع إليه مخاوفه بعد ما ظن أنها ستفارقه و تهبط الى العالم السفلي، لكنها بكل سرور تأبطت به ،لتعيد له الصورة واضحة، توهمه بأن أخاه غرق في البحر ، بل إنه البحر الذي تجري مياهه في تلك الساحة !

ارتدى عماد معطفا جلديا ، ثم خرج تائها ، حائرا محاولا استعادة وعيه. توجه الى الساحة ،و بينما عقله غائب في سيره وجد عماد نفسه وسط الساحة .لم يكن هناك ماء !

كان الطقس يزخر برياح باردة جعلت أسنانه تصطك ،ثم كان يفكر في أن هاته الرياح اتية من البحر...

راح يسير بتؤدة قاصدا البحر .إنه يريد دخول مياهه و البحث عن ذلك الغريق و تمييزه حاسبا فيه أخاه فذلك الصوت مازال يشغل الشق الأيمن من دماغه تارة و الشق الأيسر تارة أخرى ليدخله ذلك في مخالطة لا خروج منها.

و فيما هو في طريقه ،يمشي أعرجا بلا سبب حتى بدأ في التمتمة اللاواعية التي تحمله على شق الندم.

-" أنا أريد عيشا صافيا ،أن أعيش ،لا أكترث . أن أرى الحياة ... من جوانب مختلفة . لم يحن دوري ... لكن البشر يموتون رغم أنفهم، رغم ديكوراتهم . لا أريد هذا ... ميتة شنعاء ،مقفرا !"

كان أمامه الشارع طويلا، و منعطفات طرق كثيرة ... لا يوجد أثر لكائن، حتى القطط التي تتعارك في الليل أخرسها البرد ، فاتخذت حاويات القمامة مقرا . و لسوء حظه ،لم يكن هناك صوت اخر في هذا العالم الاخرس غير الصوت الذي يكتسي أذناه و روحه .

و كأن هذا لا يشبع رغبة ، إذ إنه ما زال عازما ! يمشي منتشيا وسط ظلام صامت ، نادرا ما يخرقه متشرد استيقظ للتبول أو لشرب ماء الحياة.

و على أدنى صوت مادام صوت النواح يخترقه ، و على كل الروائح ما دامت رائحة البحر تغطيها ... تهاوى عماد فسقط !

الفصل الثالث

استيقظ عماد في غرفة طليت حيطانها بلون أبيض رديء يميل بشدة إلى الأزرق الفاتح الضيق حسه بين جميع الألوان ،و كان يحس بالحر والإجتفاف ، قبضتاه مضمومتان و قد استولاه عالم أصم، أبكم كحجر.

هزته عطسة ثقيلة تسببت في إحضاره لوجه بملامح متعبة ،و كأنه الوحيد الذي يحرث تلك الممرات التي يراها من باب غرفته و لا يستريح.

لقد كانت ممرضة : " كيف حالك ؟ ستمكث هنا اليوم حتى يأتي الطبيب " ثم ذهبت...

لم يتسنى لعماد الإجابة، فقد كان تحت وطأة ذهول مشين، فصاح عماد في نفسه " ما هذا الاختصار الشنيع ! أهذه هي الجملة التي تقولها دوما دون ملل أو كلل "

إنها تأتي دوما الى المرضى بإحباط شديد يضاهي حبها لعملها .. "لكن لماذا أنا في هذه الغرفة التي تفوح منها رائحة الدواء و المرض؟ تلك الرائحة التي تحمل عرق المحمومين و جبص الكسيرين و خمج المجروحين ... ! أأنا واحد منهم ؟...

ربما لا . أحس بأطرافي تتحرك ، ما زلت بصيرا، أتكلم ... لكن من يدري ؟قد أكون مصابا بأحد تلك الامراض الباطنية التي تحدث في صمت ،كصمت وحدتي، و قد ... "

لم يستطع الاحتمال ،نادى على الممرضة تلقائيا ، لكنها كانت بعيدة لم تسمعه. التفت على يمينه ، فرأى رجلا مستلقيا على سريره و قد لف رأسه في ضمادة بيضاء ملطخة باللون الأحمر . كان محنطا بطريقة

عجيبة ! فقد كانت عيناه و شاربه الخفيف هما اللذان يظهران . لكن لماذا الشارب ؟هل سيختنق إن وضعت عليه الضمادة ؟...

" اه، إنه للتمييز ! " قال عماد- لكي لا يظنوا بأنه امرأة ! حقا ، ... لكن - لا شك و أن تلك الفعلة استخرجت من وحل الغباء و دوافع النذالة ! وقد يكون هو الذي اقترحها ،لأنه يبدو صعب المراس ،إذ إنه في تلك الحالة المنقبضة، كان يحدق في عماد و يتحرك بطريقة غريبة تحت الغطاء !

مرت الممرضة أمام الغرفة ، أحس عماد في نفسه صراخا كبيرا فهرع إلى مناداتها، وها هي تجر رجليها المتورمتين ، و اللتان يبدوان أنهما في حاجة ماسة إلى علاج ! تتعرق و تلهث ، و أمام هذا الجو المثقل بالعلل، قالت له بهدوء " ماذا تريد؟"

-" أنا لا أتذكر ما حل بي بالضبط .. لكن لماذا أنا هنا ؟"

أحست المسكينة بالضيق ووجهها يندى عرقا و زيتا ، تحاول جاهدة أن تخرج صوتا من حنجرتها المترهلة - كأنها غريقة فتقول :

-" لقد وجدك أحد الرجال في الشارع ،مستلقيا على الأرض فأحضرك إلى هنا ،على سبيل الإنسانية ربما "

و بدأت تشرق بعض الثقة التي غابت طوال ساعات، إذ توجه الى معطفه الجلدي المعلق على الجدار ،دس يده في جيوبه ثم أخرج محفظته، تفحصها ... أدخل يده ثانية الى جيوب المعطف باحثا عن هاتفه ،لكنه لم يجده ،فعزى ذلك إلى نسيانه في المنزل لأن الحالة التي كان فيها مستعصية على الإدراك ،لا تطاق !

بعد دقائق ، خرج من غرفته ،ليدلف المجهول ،إلى غرف أخرى سكنتها أجساد من خانتهم الصحة ،فظفر بهم التأوه و النحيب فأصبحوا يرون كل شيء أمامهم أصفرا باليا . وها قد بان أقربائهم يحضرون لهم ما لذ و

طاب من أنواع التحلية و الفواكه ،لكنهم كانوا كأصنام بعث الروح في عينيها فقط ،يكتفون بالمشاهدة بوجه استأصلت منه الضحكة فأصبحوا نادرا ما يبتسمون ،ابتسامة خفيفة تبعث في أقربائهم الحركة و الحماس لزيارتهم كل صباح و السؤال عن أحوالهم و خصوصا متى سيخرجون من هاته الاسوار الممزقة الاحاسيس.

و كما يحتاج شخص إلى لقطة حساسة ،تدفئه بمشاعرها و تذوقه أمانا ظاهرا ،فقد كان ذلك عماد المسمم بالوحدة.

قرر أن يقترب من أحد المرضى الذي يضطجع سريره و قد أحاطت به عائلته ،فابتسم لها ابتسامة عذبة جعلتهم يدعون له بالشفاء العاجل والعمر المديد بمشاعر فياضة. أما عماد الذي كان على بعد خطوات منه فقد أحس بشيء متوهج و متحفز يتجاوب مع حماس قلبه و يجعله مرتخيا،متناسيا وحدته وتعاسته ،حيث الحب و المرض يتصارعان أياما طويلة !

كان ذلك المريض ما زال مبتسما و ابنه - على الأرجح، يشد على يديه ويقبلهما ،أما زوجته فكانت تقول له :

-" لقد قال لنا الطبيب أنك ستخرج بعد يومين ! "

كان كل شيء يؤثر في عماد و يربكه ،يفرحه .كل ما وقع عليه نظره كان يترك في نفسه أثرا جديدا !

في البداية، كان قد أحس بالإهانة و الخجل لأن ذلك المريض وأقربائه لا يعيرونه أدنى اهتمام، و لكن بعدما استغرق تماما في النظر والإحساس بجمال لم الشمل و توهج العائلة . لم يعد يذكر روائح المرض و الأغطية الصفراء ; كأنه مر أمامه هواء سعيد و متعالي يفصله كل الفصل عن الوحدة .

و لكن احساسه بالجمال و الاجتماع كان غريبا ،أثار فيه الانبهار ، لأنه

رأى شيئا غريبا ،لا يبشر بخير، فقد رأى أن دعوات أولئك الأقرباء لمريضهم استجيبت على الفور ،لكن ليس جميعها ،لأنها نوعا ما صعبة أن تحل في ان واحد و في المكان نفسه !

لقد حصل ذلك المريض على الشفاء العاجل ، بل شفاء سرمدي لن يشعر بألم بعده ،لكنه لم يحصل على الأمنية الأخرى : العمر المديد ، لأن تلك الابتسامة التي ابتسمها كانت اخر ابتسامة ودع بها العالم بكل ما يحمله من غريب و قبيح و جميل ، ابتسامة الانفتاح على الأرواح الطاهرة والعالم الاخر البهي !

فكر عماد بينه و بين نفسه " لن يدوم شيء ،لن يدوم شيء ... قد أموت أنا أيضا هنا ! لما لا ،الموت لا تحبسها جدران و لا حواجز ولا طلاسم، تأتي لطيفة ،غريبة ،مخففة على الفقيد مثقلة على أحبائه... "

ثم عزم بعد ذلك العودة إلى غرفته و قد بكى بكاءًا خفيًا تعاطفًا مع المرحوم ... ليجد حينذاك الطبيب في انتظاره...

كان الطبيب في تلك الغرفة كشيء خارق للعادة ،لم يتوقع وجوده أو تنبأ بحضوره.

كان عماد يسير ببطء إلى سريره و أعين الطبيب تراقب كل خطوة من خطواته بصبر مفروغ . لم يكن عماد يقدر أن يتصور ما سيحدث له ولا ما قد يقع . كل هذه الأشياء المرعبة ، هذه السحنات و هذا الوجه الغير صباحي المغسول على عجل و الوزرة الخضراء التي تكبر مقاسه و النظارات ... كانت تصيبه بالذعر.

أحس عماد بنظرات الطبيب التي تسبق الكلام ، نظرة الطبيب الجسور الخبير، ثم قال له :

-" مرحبا ! "

-" إذن أنت الطبيب ،مرحبا ! " يقول عماد بصوت خافت.ثم راح يردد

في نفسه " ها قد جاء الطبيب ، متأخرا ربما ... لكن لا بأس ،سأخرج قريبا "

بدأ يمشي الطبيب بثبات و خطوات قصيرة قرب سريره ، و يلتقط الكلمات من هنا و هناك ليهدئ من روع عماد و يضع حدا لشكوك قد تساور رأسه ، لكن هدوءه و نظراته المنصوبة على الأرض جعلت من عماد مخردلا بمناجل الشك ، تحصد روحه وطمأنينته و بسالته ، فلم يحتمل ...

-" لماذا تحوم حول سريري ؟ .. أهناك شيء خطير ؟" قال عماد.

توقف الطبيب ثم استدار بطريقة آلية نحو عماد وكأنه كان ينتظر ردة فعله ،لأنه - في الواقع ،الإنسان عندما تطأ قدمه المستشفى يكون فريسة الطبيب ! وكأن هذا لا يكفي ، إذ أن هذا الطبيب استحال عليه التفكير- بالأحرى، الكلام !

بعد دقائق، يستيقظ الطبيب من شروده، يتفحص الوجه المضطرب لعماد مدة قصيرة ،يتنهد تنهدة طويلة ،ثم عاد فنظر إلى دفتر كبير فرفع رأسه قائلا :

-" اه، ما لديك الان هو مرض تتفاوت خطورته بشكل عام يصيب الرجال و النساء "

يود عماد الان التعبير عن الاختناق الذي عاناه جراء كلام الطبيب المنفية معانيه و المبهمة سطوره ،فقد كان هذا الطبيب يبدو كشخص يحب أن يحمد على عمله ،على شيء يتقن فعله ويتماطل في أدائه .. كان ينوي أن يرد كل لحظة من لحظات أعوام كلية الطب الطويلة التي جعلته نحيل القوام ،أصلع الرأس... فيجد عذابه طازجا في المستشفى و معه وجوه المرضى المستوفية نضارتها.

ارتجفت شفاه عماد بابتسامة محزنة ثم قال :

-" أو تمزح ؟ ! ما هذا المرض الذي يصيب الرجال و لا يصيب النساء ويصيب النساء و لا يصيب ... "

-" لا تنفعل أنا فقط أريد عمل تمهيد لكلامي لا غير ، و بما أنك أتيت على حين غفلة إلى الغرفة لا أريد أن أفجعك "

-" أجل شكرا ... لكن... لا ، إنك تفجعني ،تصرفاتك تفجعني . ألم يخبرك يوما مرضاك بذلك ; حاول أن تسألهم فلن يترددوا في إجابتك !!"

ابتسم الطبيب و قال : " أووه ،أنت لا تعلم ؟ ... إنهم لن يجيبوا ! فعندما يكون الشخص مريضا ،يكون مشغول الفكر طوال الوقت بمرضه ، ولوكان دوائه على سطح القمر و استطاع سبيلا لصعوده لذهب اليوم قبل غد ..." ثم ضحك ضحكة انتهازية مجنونة كضحكة الساحرات في الأفلام الكرتونية، ثم قال :

-" أنا الان هو المركبة التي ستوصلك الى ذلك القمر للحصول على دوائك ... لذا فلتكن شاكرا لأنني سأوفر عليك عناء الرحلة ! "

و في تلك اللحظة، بدأت نفس عماد تنزلق نحو كلام الطبيب المنان ، فأوقفها ! لأنه و ببساطة لا تستحق نفسه الانزلاق إلى ذلك المستوى . فوحدته جعلته متفردا عن البشر ،لا يطيقهم ... حتى إنه قد يفضل ميتة شنيعة في أعالي الجبال حيث القبور يصعب حفرها بسبب قشرة الأرض الصلبة على هذا الحشو الكلامي.

حينذاك، تخرج الروح الحقيقية الملوثة لعماد تلطم الطبيب عنادا، حيث قال عماد بصوت متمايل بين شفتيه و هو لا يكترث لتلك المركبة الأسطورية الغبية التي ستوصله لذلك القمر ، و كل ذلك لدخول صلب الموضوع دون طواف في الأماكن الخرافية البعيدة عن الوجهة :

-" فعلا ! عندما كنت طفلا، كنت أظن أن الدواء يصنع من قشرة سطح القمر ،لأن أغلب الادوية تكون بلون أبيض كسطح القمر ! "

-" فقط للمعلومة ، سطح القمر مظلم " أجابه الطبيب بنفس عنيدة متكبرة.

-" و هل مركبتك تحمل مصابيحا !؟ " قال عماد متهكما.

و ها قد وصل عماد أخيرا الى اللحظة التي تقف على الأشياء بما فيها الطبيب و مركبته ، فاستلقى على سريره بعد الرحلة الكلامية التي خاضها . ولكنه نسي أن ذلك الطبيب لم يكن أخرسا و أنه ما زال لم يخبره بما يعاني ؟ و ما الذي أتى به إلى هنا ؟ لذلك فهو ما زال في شباكه و كأنه ملتصقا بها ينتظر العفو.

بعد هنيهة، تلمس أذانه همسة حارة ،لتجعله يتذوق ما يسبق الذبحة القلبية بلحظات :

-" انك تعاني من مرض السكري ... هل يوجد أحد من عائلتك مصاب به؟ "

-" لا أعلم " عماد غير مبالي

حك الطبيب رأسه ثم استأنف قائلا :

-" قد يكون وراثيا أو .. لكنني أنصحك بالتقليل من تناول السكريات وإعمال مجهودات عضلية و شرب السوائل بكثرة و أخذ حقنة الأنسولين كل يوم "

ومثل أخرس فاجأ النطق شفتيه أجابه عماد قائلا :

-" مرض السكري ؟ ! "

-" لا بأس ،اتبع النصائح و التعليمات و لن تحس بشيء " ثم خرج الطبيب عندئذ و قد بدا عليه أثر الانتصار من بعد الغلبة ،و لكنه كان يطمس ملامح محياه بدفتره الكبير .

كان كلام الطبيب يوجع الجسد أكثر من المرض ،و بقي عماد محدقا إلى ظهر الطبيب الذي يبتعد مصغيا لأنفاسه الملتقطة صامتا ، حتى أحس بأن الزمن توقف و الوجود اختفى و لم يعد يرى سوى عيني الطبيب الذابلتين و شفتيه اللتين تتمتمان " لن تحس بشيء " .

فبدأ يقول في نفسه : " لماذا لديه هذا الشعور السيئ بترك الأشياء غامضة ،سطحية من الممكن أن تنطبق على كل شيء و على كل إنسان؟ ما هذه البلاغة في التفلطح ؟ هل يحب أن يمجد لأنه هو الطبيب الوحيد الذي يختفي كطيف عاجز بين غرف المستشفى ؟ أم لأنه بارع في قول كلام غامض ؟ - بلا شك، أن لديه فكرة مطروقة من أفكار المستبدين تحثه على أن المرضى اللذين يصحون و ان كان ذلك خرافة سيجتمعون يوما ويبنوا له تمثالا تخليدا له ! لكنهم لن يفعلوا ; لأنه و ببساطة سيكونون مرضى، مرضى نفسيا ! ما زالوا يبحثون عن معنى لكلامه المبهرج ... فيذيقوا ذرعا بعد عدة محاولات و ينبذونه و ينبذوا جدران مستشفاه الكئيبة.

الفصل الرابع

تغير المشهد قليلا ليجلس عماد على أحد صخور الشاطئ في ساعة بدأت تخفت فيها أشعة الشمس من كل زوايا السماء ،و نظراته منغمسة في ألوان الماء الأحمر القاتم . فبعد هذا التوثب بالحياة ،تأتي لحظة جميلة إلى حد ما يستتب فيها الصمت لينطلق فيها الخيال، فينبثق ذلك الحب الذي يتبادله المهمومون مع البحر .

و إنه لمن الصعب أن تكون غير مؤمنا بفكرة ما فتجد نفسك في خضمها، من مؤيديها الكبار ! كذلك لم يصدق عماد بأن البحر سيكون يوما ما جليسه يشكي إليه همومه.

ورغم ذلك ، استعاد عماد طريقه ليجد نفسه أمام زملائه في العمل، بطقوسهم الباردة المبتذلة يهنئونه عن الرجوع سالما، متمنين له حياة رغدة و شفاءًا عاجلا .

و لكن ما الرغد هنا؟ ما الجمال هنا ؟ لم يزره أحد !

تركوه تحت ثقل كلام الطبيب و رحمة البحر و ابتسامة رقية التي كانت تأتيه في فترات استراحتها لتطمئن على حاله ! أما زوجها ; إسماعيل فلم يزره ،مدعيا أنه مشغول دائما و أنه سيجد وقتا في القريب العاجل، ذلك الوقت الذي لن يجده ابدًا .و إننا لو بحثنا بين جراح عماد ،فلن نجد أثرا لزيارته و لا حتى كلمة حنونة يوصلها مع زوجته !

استعاد عماد بعضا من نشاطه المعتاد بعد أسبوع ، فقد أدرك أخيرا أن ما أصابه لم يقتصر عليه ظلما ،فهو منتشر بين فئة كبيرة من الناس ، وأن حقن الانسولين بانتظام و التقليل من السكريات يجعل من المرض زائلا، فما يتبقى سوى بعض الذكريات القبيحة التي تتلاشى بعطر زكي، رائحة

عشق بين اثنين يرتبطان في جو جميل . و لكن هذا الجمال الذي بحث عنه عماد يبدو له أشد اقلاقا و لاسيما أن الطرف الاخر مرتبط -بالأحرى، متزوج !

و كذلك أصبحت رقية دوما ما ترمق عماد بنظرة متلهفة ،تنتظر منه ردًا ملموسا، فتعطيه الإحساس بأنها تستطيع تدبر كل شيء ، فأصبح الاثنان متجاوبان يترقبان مسارا مضيئا لا ينتهي إلا بانتهاء الأعمار . وهذا ما يتمناه جميع العاشقين الجدد ، إلا أن ذلك المسار غالبا ما يفاجئهم بانعطافاته الوعرة التي تقلب عربة السائق و ترمي بها من أعلى المنحدر !

لقد كانت المرة الأولى التي يعشق فيها عماد ،المرة الأولى التي يكتشف فيها معنى التوأم الروحي ، تلك الكلمة التي يسخر منها جميع المتعصبين لحقيقة الحب ،لكن سرعان ما يباغتهم هذا الأخير ليجعلهم يكتشفون الأحلام الوردية و ما صاحبها من لمسات وضحكات ترقبها عيني عماد بلهفة ،وتجعله متسمرا من رهبة السعادة سامعا مطيعا لما يمليه عليه قانون الحب.

يحدث غالبا أن الشخص يذهب أبعد مما توقع، لأن رقية كانت في انتظار حب عماد، و لم تكن تنتظر شيئا آخر .فزواجها بإسماعيل ما زال قائما غير أنه تمثال جامد ، لا يملك ضرا و لا نفعا ، إذ إن الاعمار تنقضي وهو ما زال مصطنعا الحب بطريقة واهنة . لكن إلى متى ؟ ربما حينما يتشاركه ثلاثة ، ويحدث أن اثنان منهم يحاولان جاهدين إبعاد الطرف الثالث، السيئ غالبا بغية زرع روح الحب في تمثالهما و تعليقه عاليا على مرأى منهما، لا يمسه أحد و لا تقع عليه عين أحد.

و إن زواج إسماعيل برقية كان مبنيا على العاطفة ،مطوقا بالشفقة لا على الحب. فقد حصل بعد أن واجهت رقية مديرها أن لعب إسماعيل دور البطل المغوار و المتهور ،مع أنه لم يكُن يكن لها حبا سوى أنهما زميلي عمل يتبخران عند باب الشركة. و لكن ما دفع اسماعيل إلى هذا الزواج؟

فالزواج مقدس منذ الأزل ،يتم التخطيط له بعناية لكي يدوم طويلا ويعطي ثمارا نافعة لا تذبل و لا تفسد ، و إن التهور في مسألة كهذه ليس له معنى، يغرق الطرفين معا بثيابهما ،يفقدان السيطرة فما لهما سوى انتظار الموت بأعين مفتوحة.

أحيانا ، قد ينتبه أحدهما أنهما على شفير الهاوية ،فيسرع بإمساك المقود و تفادي الوقوع في بحر الشقاء، لكن هذا لم يحدث بالطبع .

لذلك ، فإن ما دفع إسماعيل إلى هذا الزواج ،هو لحظة إذلالها أمام المدير. تلك اللحظة التي فتكت بعواطفه و فتحت أحاسيسه على مصراعيها فلم يبقى لقلبه إلا أن يقول " أدخلي، لا أكترث لشقاوة الحب ! "

ذلك و كأن مآسي الحب لحظية أو تختفي كليا ; تتبخر مثل مياه الأمطار التي تأتي بالخير و الفرح على كثير من الفلاحين ،فما إن تسطع الشمس حارقة حتى يضحكوا و يقولون " ستأتي أمطار الغيث مجددا " و هذا ما يحصل غالبا. كذلك الحب.

و من جهة أخرى ، أراد اسماعيل أن يقمع ذلك التحالف النسوي الذي أراد تفريقهما ،و ذلك كما ادعى ضميره ،ضميره الخائن الذي أنبه فيما بعد على قرارات اتخذها هو !

و بعد العاطفة ،جاء العرس : حضره جميع أصناف البشر : العائلة، المحبين، المتملقين، المتعصبين و غيرهم من المتطفلين - على العموم، كانت أجواءًا سعيدة وسط الأهازيج والزغاريد و الصلاة على النبي .

ورغم أن عماد كان يشتكي من ثرثرتهما إلا أن ما تبديه أفعاله يتعارض مع كينونته، فقد اتخذ مقعدا و سط عائلة العروس لأنهم اعتبروه من المقربين للزوجين وخصوصا بعد شهادته المرتجلة أمام المدير. و كان يرى أن لحظات خداعات كهذه ستمر كيفما تأتي الرياح ! . ولم يكن عماد مغرما برقية آنذاك، فقد كان يرى فيها الزميلة و الجارة و العدوة أحيانا .

بعد ثمانية أشهر من زواج اسماعيل و رقية ،بدأت رقية تفقد حريتها ونشاطها. غدا كل شيء متكلفا و سطحيا و منافقا من الصباح حتى المساء.

لم تعد النظرات كما هي و لا الضحكات كما هي ،أصبح اسماعيل يحييها بوجه بائس ،شارد فأصبحت حياتهما مصعوقة بطُن من الرتابة . كل المؤشرات تؤكد أن لا شيء يسير على ما يرام ،و كان إسماعيل يدرك جيدا أنه وجها لوجه مع رتابة أزلية يظهر فيها كل يوم مريعا .

بيد أنه يقنع نفسه بأن هذا هو ما سبق له ان أراده : هو أمام زوجته الكئيبة و نفسه و لوقت يراه طويلا و ربما حتى النهاية .

أصبح اسماعيل يدخن و يخمن حتى ساعة متأخرة من الليل ، زوجته بجانبه كجثة همدت بعد أن ضاقت ذرعا من مواساته والتودد إليه. ولكن حوالي الساعة الواحدة صباحًا ينام .

في اليوم التالي ،يستيقظ متأخرا و السواد يخيم تحت عينيه الناعستين، يتناول فطورا لا مذاق له ، فالرتابة تجعل الأذواق تتشابه ! ثم ينطلق إلى عمله بصحبة زوجته التائهة في المقعد الأمامي بجانبه.

كل لوحده، لم يعد يجمعهما إلا العمل أو النوم . و بقدر ما كانت الساعات تمر كان الشجن يأخذ بنواصيهما و هما يتقطعان شوقا الى أيام قد ولت سعى فيها كل واحد إلى ما يحب.

لم يعودا يكترثان لما أملته عليهما تلك اللحظة الصغيرة، ذلك الحب الصغير. فقد أدركا أن هاته اللحظة أخذت تفترس لحظات من حياتهما، تذوب فيها سعادة ناقصة اجتاحتهما فأخذت معها عقلهما و روحهما.

وإن السعادة لتلقى نفحات، شيئا فشيئا فبعدما علمت رقية بخبر مرض عماد ،أحست بطريقة مدوخة أن ذلك هو الشيء المتوفر آنذاك لتسترد

تواطؤها مع العالم . و بذلك أصبحت تزوره كل يوم في لحظات فراغها، فأصبح ضباب الكآبة ينقشع شيئا فشيئا حتى أصبح جوها صحوًا !

لقد وجدت صديقا وحيدا يحتاج معيتها أكثر من أي شيء آخر حتى يتسنى له نسيان آلام وحدته ، و في ذلك نسيان لآلامها أيضا . فالآلام تتفاهم وتواسي بعضها لأيام .و بعد اغتنام هاته الفرصة ، أصبح عماد ينمي ما يشبه الحب مع رقية .

هذه الحالة ليست شائعة في مجتمعنا ،إنما تأتي فجائية في انتظار من يحسن استغلالها . وحين وقع الأمر ،تعلقت حياة عماد بهاته المرأة التي فهمت جيدا عزلته و مدى حاجته إلى المودة و الحنان .أصبحت بالنسبة له سيدة شريفة تحتاج رجلا حقيقيا يرغب مصاحبتها .و كذلك، انغمس عماد تلقائيا في الشوق إليها فأصبح يضرب معها مواعيد غرامية ليلا متجنبا الإلتقاء بها في العمل .

ذات ليلة ، تناولا العشاء في أحد المطاعم الشعبية بطنجة. طلبا صحنا كبيرا من السمك المقلي و قليلا من الصلصة الحارة التي تضيف للسمك نكهة خاصة و تزيد الجو الساخن حرارة .

و بينما هما في منتصف طبقهما ،قال لها عماد و قد ارتسمت على وجهه ابتسامة شققت جبص الوحدة :

-" المرة القادمة، أريد هذا الصحن من السمك بطبخ يديك"

ضحكت ثم قالت : " كلنا نأمل الأشياء اللذيذة "

أحس عماد بانحراف جوابها عن سؤاله فمن ذا الذي لا يحب الأشياء اللذيذة ! و لكنه لم يؤنبها على ذلك ،بالمقابل اصطنع شيئا من الشرود ... لاحظت رقية بمشقة ذلك ، فعلمت أنها لم تتصرف كما يجب ،فغطت عن ذلك بحركات إغوائية لا تبرع فيها و لما أحست بالخجل تمتمت قائلة :

-" أنا ... لست ماهرة في الطبخ كما تعتقد "

-" إذا هكذا ...لا بأس " وقد تجنب قول إنه يعرف أنها لا تعرف من الطبخ غير أسماء الاواني ! ثم أضاف : " ليس عيبا أن تعجزي عن الطبخ - في نظرك ،لماذا بنوا المطاعم وحضروا المأكولات الجاهزة ؟ !"

-" بالطبع ،إنها لنا ، العالم كله لنا !! " أجابته بلهفة المحبين.

و ظلوا على هذا المنوال لحوالي نصف ساعة ، حتى اكتست عيناها بالدموع ، فظن عماد أنها دموع الفرح

" بصحتك ! " قال عماد.

حدقت في عينيه حتى ظن أنها تبادله الشعور ،سحبت نفسا عميقا ثم قالت : -" إن إسماعيل لا يحبني "

لم يبدي عماد أية حركة، بل لعب دور المحب الرزين لأنه كان ينتظر هذه الجملة التي تجعل كل الاحتمالات التي جاء بها في البداية كعائق ملغية تمامًا.

و الآن، الكرة انتزعت من إسماعيل ووضعت في ملعبه ،فاكتنزها وذهب بها لوحده دون ان يمررها لأحد فيسجل عليه هدفا شنيعا . وكنتيجة، بدأ يظهر لها بعض المشاعر الدفينة، شيئا محسوسا واقعيا. مسك يدها، فتوقفت دموعها الجامدة و اعتلى السرور وجهها ; ثم قال لها :

-" أرجوك لا تنهكي نفسك .أنت فقط لا تستحقين تجربة زواج فاشلة لأنك نزيهة نوعا ما ... أرجوك لا تبالغي، ليس هناك ذكريات لا تنسى و لا الآم لا تمحى . تذكري أنك لم تمضي إلا ثمانية أشهر، ليست مدة طويلة .أليس كذلك؟" حدق في عينيها ثم قال: " إنك تريدين مشاعرًا جميلة و أنا مستعد من الآن، فقط لا تنظري بعيدا "

و هكذا لم يكن عماد يريدها أن تفكر كثيرا لأن الفهم كثيرا يولد الشك ويفتح فرضيات كثيرة ،فاشلة من الأساس.

تضحك و تقول : " أو تعلم ؟ كنت أعلم أنك تحتاج شخصا في حياتك، شخصا يكن لك محبة خاصة . لقد كنت أراك في مكتبك وحيدا..."

ثم قاطعها قائلا : " لم يكن بيدي حيلة ! "

-" نعم ، إنك تكد كثيرا في عملك و تحس بأن ذلك سيهون عليك ؟ ... بصراحة ، لم يكن يتغير فيك شيء ، لقد كنت تعيسا"

احمر وجه عماد خجلا : " اووه ... لا تذكريني "

-" إنني حقا متعجبة مما يحصل الآن ،لكنني أراك رجلا حازما ، و أنا أحب امثالك ! "

و ها قد أخرجت بما في جعبتها و صارحته بمشاعرها . وعليه أن يجاملها بحذق وإلا سكتت إلى الأبد و صحت مقولة التوحد التي نعتته بها قبل قليل.

نظر إليها عماد ، مندهشا و هو يرى أن رقية ستكون مدينة له بالكثير إن فتح لها أبواب السعادة التي غابت عنها و جعلتها أسيرة الرتابة ..

-" أنا أيضا أحب الحمقاوات أمثالك !" قالها هكذا ،بين الجد والهزل .

ترمقه بعين ودود ووجه بشوش و كأن عقدتها تم حلها للتو :

-" إنك فرحة عيني ،و أتمنى أن ترافقني هذه الفرحة أينما حللت"

و بهذه المشاعر الفياضة التي لو سقيت بها الأرض لأنبتت وردا بدون أشواك، ناشد عماد التجربة و تبادل معها ابتسامة رائعة تطهرها من دنس الغرام الفاسد، و بذلك أصبح هذا اللقاء الاستثنائي بمثابة الشعلة التي

أيقظت الحب في قلب هاذين المتوحدين ، و بعزمهما بدأت الشعلة تكبر وتقربهما أكثر وأكثر...

كانت الأيام تنقضي و قناع تواصلهما يصبح أقل سمكا إلى أن أصبح ذات يوم طبقة رقيقة لا تكاد ترى !

فقد أدركا بطريقة مدوخة أن الظفر بالسعادة و الخلاص من وحدتهما ليس باتصالاتهما القصيرة و التقائهما الخفي في المقاهي ساعات الفراغ واستغلال بلاهة إسماعيل لضرب مواعيد في أماكن فاخرة أحيانا، بل إنهما أدركا أن الظفر بالسعادة يكمن في اتصال أكثر قربا ، اتصال جامح و مدهش ! و هكذا لم يتوانيا لحظة عن هذه الفكرة .

كانت الكلمة حاسمة، رحلة بدون قبطان ، فقط غبية و تعيس يوجهانها ، لا يعلمان مدى صعوبة الأحداث و ما قد يعرقلهما ، وهما في جهل تام عن ما إذا كانت هناك يابسة ! فالرياح دوما ما تهب في الاتجاه الذي لطالما كرهته السفن.

كانت الساعة الثامنة و النصف مساءً، حين استدعت رقية عماد الى شقتها .لم يكن إسماعيل موجودا ،فكعادته كان يخرج الى مقهى الجوهرة على الساعة السابعة لشرب قهوته والتحديق في فنجانه و غيرها من الأشياء الراكدة..

و كما هو الأمر ،ظهرت رقية بلباس مغربي تقليدي ،أقراط ذهبية ،قفطان ابيض مطروز بوريدات حمراء و مرصع بعقيق احمر . ولكن، رغم أنها بذلت جهدا كبيرا في الاهتمام بهيئتها الثخينة لتجعل عماد يتذكرها أياما بليليها فقد كان منظرها يوحي بأنها نسيت كيف تظهر بصورة جميلة!

دخل عماد شقتها و هو يثني عليها، فهو أحس أن هناك شخصا يلبس أكبر من حجمه لإرضائه ،لذلك ،لم يكن بخيلا في عباراته الرفيعة والرنانة ،بل

أخذ يمطر منها بغزارة و هي في أبهى نشوتها ،فلم تكن تملك إلا ضحكات تنير بها عيني عماد.

-" انك تبدين مثل قمر أوسخته التعاسة ! " قال عماد

تلثم رقية فاهها بأكمامها الطويلة و تقول :

-" لا ... إنني فقط في ليلتي "

و تتصاعد الضحكات متتالية متواطئة مع لمسات خائنة و جميلة .

كانا يبدوان بريئين مجردين من برودة الوحدة و تعاستها ،يضحكان كمراهقين يتذوقان الحب لأول مرة و تسحقهما نشوته !

جلس عماد على السرير لترتمي رقية بجانبه ،فيدخلان في نقاش طويل...

-" كيف تجدين هذا ؟ " قال عماد

-" إنه ممتع ! "

-" هناك أكثر من سبب ... ألا تعتقدين أننا نناسب بعضنا ؟ نحن نناسب بعضنا مثل القفل و المفتاح ،لكنني لا احبذ المكان الذي وضعت فيه مفتاحك !" قال عماد

رقية متعجبة : " تقصد إسماعيل ،صحيح ؟"

-" نعم "

-" حسنا، هل تعتقد أن ذلك كان شيئا ؟ لقد كانت تلك لحظة عابرة ،خاطئة انحرفت عن مسارها الزمني لتضعنا في حب زائف . " تقول رقية.

-" لا يهم ،... أرأيت كيف أن الزمان جمعنا ؟ لم أكن أظن يوما أنني سأكون يجانبك هكذا .. "

- نعم ، انه لشيء رائع . لكنني ... ! "

- " ما بك ؟ " عماد متفاجئا

-" أنا فقط لا اريد أن يجمعنا ذلك الزمان الذي سبق و أن جمعني بإسماعيل "

-لا تبالغي ، فالزمان مستويات كالهرم ،يصنف فيه كل عاشق بحسب درجة حبه و ايمانه ... و بحبنا و إيماننا الكبيرين أظن أنه سيضعنا في الطبقة العليا، طبقة الملك ! "

-" أممم .. أنا لا اثق فيه . " قالت رقية

-" لا عليك ... " ثم قاطعته : " لكنني مرتاحة معك ! "

كانت العذرية التي يتصف بها عماد تتوهج بقلبه و تضعه على جمر حارق لا يطفئه إلا ممارسة الحب معها وقد بالتشبث بها أكثر إذ قال بدون أن يفكر كثيرا :

-" أرغب الاقتران بك ؟ "

رفعت عيناها الى السقف بعد أن كانت ناصبتهما على عماد ،ثم تنهدت تنهدة طويلة و تململت متوجعة كالمعطوبة و بصوت تشحذه شفرات اليأس قالت :

-" إنني أحتاج أحدا يرعاني هذه المرة و لكنني لا أقدر على ... فقط لا أقدر " ثم انهارت في بكائها .

ارتسم الذهول على وجه عماد لأنه لم يعد يعرف فيما تفكر فيه هذه الغبية الراقدة بجانبه، التي فجأة أنبتها روح المسؤولية و لفها الغموض. و لكنه عزى ذلك إلى قوة كلمته التي تحتاج تفكيرا ، فلا بد و أنه تسرع في طلب يدها و لأنه في منطقتها الآن. قال لها :

-" ألا يحتاج الجميع إلى هذا ؟ "

بقيت على حالها تشهق و تذرف دموعها دقائق..، إلى أن نهضت من السرير مكشرة :

-" أنا لم أعد أحتمل الحديث في مواضيع كهذه ، لم أعد أحتمل ... ! "

-" توقفي لم أفعل شيئا سوى العناية بك و إخراجك إلى العالم ! "

و في غمرة هذه الحبكة المروعة ، صارت لا تميز بين نظرات الحقد من نظرات العطف فصاحت قائلة :

-" لا ، إنني متزوجة ، لا يمكنني المجازفة بكل شيء من أجل رجل عرفته لتوي، حتى إنني كنت في نظره نكرة ! فقط اعذرني، لا يمكنني المجازفة... اعطني وقتا ! "

يقول عماد وقد أحكم انفعاله :

-" بلى ، انك تعرفينني منذ ثمان سنوات ، كنا زملاء عمل ؟ "

-" لا يمكنني ، أنا اسفة ! "

لم يسع عماد الآن ، إلا أن يتفهم موقفها لأن مناقشات كهذه رغم حدتها العاطفية تحدث دوما بين العاشقين و الأزواج أيضا، و خاصة الجدد منهم !

فأدلى عماد بقوله بهدوء محكم : " من طلب منك المجازفة ؟ إن كنت متحفظة فلا بأس ، أنا لا أرغمك على شيء فقد صارحتك بما في نيتي لا غير ... لكن، أليس أنت من دعوتني ؟ "

تقف أفكار رقية أمامها محتارة و قد استهواها منطق الوحدة السادي فتقول له :

-" نعم ، و لكنني لا أحتمل رؤيتك الآن ! اعذرني ... إن كان بإمكانك المغادرة فغادر ... و لنلتقي مجددا " تقول رقية باكية

يتأسف عماد و يقول :

-" لقد اعتقدت فعلا أنك تحبيني ، لكن ، لماذا تريدين التخلص مني؟ " ثم هم بالاقتراب منها ...

تحاول رقية تجسيد افكارها المخبولة بألفاظها فلا تستطيع ،و لكنها تفصح عن أحد تلك الجمل الخاطئة التي تسحق العلاقات العاطفية و ترفسها رفسا قويا فتقول :

-" أريد ان أكون وحدي فقد يدخل زوجي في أي لحظة "

في هذه اللحظة بالذات، حينما انتاب الخوف رقية فلم تجد الكلمات المناسبة للتعبير عن ذلك ، أخذت الحذاقة و السذاجة عماد ; الحذاقة لأنه أراد التخفيف عنها و السذاجة لأنه يعلم أن ليس لديه خبرة في ذلك وخصوصا في هذه الحالات التي أنهكها الزواج المتردي . فقال لها ثائرا في مشهد صادم :

-" لوحدك ؟ عاجلا ام آجلا ، سيتخلى عنك زوجك و يتركك عضوة مهمة في عشيرة التعاسة ،و ستبكين طوال الليل و لن يكترث لك احد ! " سكت عماد قليلا حتى ارتشف ريقه الذي تخرج من بينه الكلمات الشافية ثم باشر بقوله :

-" لم ينجب معك زوجك أولادا ; و هذا كافي للتخلي عنك مرة و إلى الأبد دون شيء قبيح يثقل عاتقه و يجعله يتذكرك ... و ربما عندما تموتين ،لن يذكرك أحد ، وربما لن يمشي في جنازتك أحد ! .. و الآن، سأنصرف . لك تعازي ! "

و كقلوب أدنتها أوجاع الوحدة ، شعرت رقية بنوبة عطف عذبة تتمايل بين ضلوعها لتلقي بها بين يدي عماد باكية ! وهي تقول:

-" لا استطيع العيش لوحدي يا عماد . أريد رجلا بجانبي ،أريدك بجانبي يا عماد، لكنني خائفة ! "

لكن ليث المصائب تبقى هنا ، فالمصائب لا تتوانى لحظة عن المجيء في موعدها . فقد كان ذلك جارتهما ' رشيدة ' تسترق السمع من وراء باب الشقة . و كعمل خير أخذ الحقد بنواصيه ، لم تتمالك هذه المحبطة نفسها ، فقد طلقها زوجها وتركها بأربعة أبناء ... تهرول إلى شقتها بثيابها المنزلية التي غابت فيها ألوان الحياة، ترفع هاتفها المنزلي :

-" ألو إسماعيل " تهمس رشيدة

-" من معي ؟ "

-" أنا جارتك رشيدة "

-" أهلا ،كيف أخدمك؟ "

و كما هي متشوقة للإفصاح عن ما تملكه في جعبتها ،لم تتمالك نفسها فقالت باسترسال :

-" ليتك تأتي يا إسماعيل ! إن الذل أصدر حكمه عليك . إن زوجتك الحرامية أدخلت رجلا الى شقتك و هما الآن في خضم ... "

-" كيف ؟ ... كيف؟ أرجوك لا تفعلي شيئا . لا احتاج فضيحة . سآتي في الحال"

دخل إسماعيل العمارة في خليط من الهيجان ،صعد الدرجات على هلع ليقف أمام شقته . يركل الباب ،فيجد الاثنين على السرير كجرذين قميئين ! جارته السعدية على أعقابه ، تترقب بعينيها الجاحظتين ... وفجأة ،تصيح " لقد فعلتها الساقطة ! "

يخرج بعد ذلك ، و في نفس الوقت أكثر من عشر عائلات بثيابها المنزلية لتشهد على هذه الواقعة .

كانت رقية ترقب الناس بعجز و نور مطفي ، أما عماد فقد ارتميت عليه أشباح الذل ، فلم يلبث قلبه أن يتكسر ألوفا من الشظايا.

لقد منح عماد الناس حقهم ،فقد جالسهم و كذب معهم ،أسخط معهم، جرى من كائن الى اخر ،من تعيس الى مسرور ، لكنه لم يفعل ما كان ينبغي. يكفي الآن، فلديه حساب يصفيه مع هذا المشهد . و يريد البقاء معه وحيدًا.

فإن أسخط شيء يمكن أن يفعله المرء هو عدم التحلي بالصبر ،تلك القفزة الزمنية التي تبطش بصاحبها إلى أبعد مما يعتقد ! فلا يستطيع بعدها أن يوجه نفسه في ذلك العالم الضائع الذي ارغم فيه على حط رحاله فيه !

ربما كان الخوف الذي انتاب رقية يستهدف فوضويتها العميقة ،و هي لا تعرف فوضاها و عنف غرائزها –الشيء الذي جعلها غريبة على عماد ، تلوح بكلمات هنا و هناك .

فقبل أيام ، لما شعرت رقية بالشكوك تتزايد ، طلبت من إسماعيل الطلاق، لكنه رفض لأنه على علم بعلاقتها الخفية بعماد ، و هو يدرك جيدا أنه إذا ما أعطاها حريتها حتى تعقد قرانها بعماد .فيكون حينئذ ، نكرة وأكثر بؤسا ; هو لم يعتد على تخليص الناس من العذابات و إدخال السرور

عليهم حتى إن كان ذلك خلاصا له ! وهكذا يمكن للأشخاص أن يتحابوا و هم منفرون ، أن يعيشوا الألم سعيا في الحفاظ على كرامتهم الزائلة ، و لكن مهما قالوا فهم لا يعرفون شيئا عن الكرامة ، إذ اصبحوا يرون بأن العذاب سعادة لذيذة.

و بطريقة ما ، تحققت هذه السعادة اللذيذة دون استمرار في العذاب ، فبعد هذه الواقعة ،ادرك إسماعيل أن في زوجته كرامة حقيقية ، كرامة كان قد تجاهلها ليقدمها الى رجال آخرين دون شعور . فقد أدرك أنها تحارب يأسها بعناد .

و هكذا لم يكن لإسماعيل إلا ان يعرف الحق في نفسه و يسعى إلى إصلاح الوضع مع زوجته.

لم يعد يحتمل إسماعيل رؤية عماد ، لذا أصبحت كل حركة كيفما كان

حجمها تهديدا له و لزوجته . أما عماد فكانت ذكرى تلك الليلة تسممه ، و قد فهم أن المرأة التي وثق فيها تواطأت مع زوجها للتخلص منه !

الفصل الخامس

في غرفة صغيرة شبه مظلمة يضيئها مصباح قديم . يوجد رجل بشارب كبير يطرح الأسئلة باستمرار ، بدون هوادة و بصوت مرتفع.

لقد كان انذاك عماد في مركز الشرطة يتم استجوابه ، وكان ما إن يسمع ذلك الصوت حتى يقفز هلعا من كرسيه . لأن ذلك الضابط يتلذذ في فرض

سلطته، ، لكنه على حق ،لأن الجرم هو الآخر يتلذذ في خرق المقدسات وهتك الحرمات.

استهل الضابط استجوابه بأسئلة كثيرة : " هل تعرفها؟" "متى دخلت عندها ؟" ... لكن دون جدوى، لم يكن يجد ردا مقنعا من عماد .

و فجأة، يتمثل الراهب الأعمى الذي يغفر الذنوب ، إنه السؤال الذي تكرره الشرطة في جميع عملياتها و يبدي مفعوله سريعا !

يضرب الضابط الطاولة بيده ليسقط فنجان القهوة الفارغ الذي كان على الحافة، ثم يباشر بسلاحه الكلامي :

-" إننا نعرف عنك كل شيء ... ألا تعلم هذا، لقد أخبرتنا رقية بكل شيء و كذلك الشهود ... بيني و بينك، إن أخبرتني بالحقيقة فسأخفف عنك العقوبة لأن المحضر الذي سأكتبه سيقدم في المحكمة "

ثم يطلق كذبته التي تبدو لعماد كحقيقة مجردة و لا مجال لتفنيدها، حين قال :

-" أو تعلم ؟ إن عقوبة الخيانة الزوجية و التحرش ... عشرون سنة نافذة، لكن محضري الذي سأقدمه بوسعه أن يخفف عنك تسع سنوات على الأقل ،و إن اخبرتني بالتفاصيل ، فقد تخرج من القضية سالما غانما"

لم يكن عماد يعرف كيف يرد، إذ أنه تحجر كذبابة سقطت في طلاء للجدران . ومن شدة الارتباك ،لم يعلم بأنها كذبة الساعة ،لأن ما كان متمثلا آنذاك هو اللعب و الأداء، لاوجود لإعمال العقل . و إن الضابط أمامه لا يأتي كلامه من فراغ ،فقد أخضعه لتجربة مليونية أتت بنتائج إيجابية في كل مرة !

و بتواضع رهيب ،يعترف عماد بكل شيء :" نعم ... صحيح "

ففي ظروف مثل هذه ،يسود ما يسمى الامتلاك المطلق : امتلاك العقل والروح فما يبقى سوى الغريزة. وكطبيعتها ، الغريزة يوجهها الخوف مثل الحيوانات، حيث إنه كلما كان الشخص قويا كلما استعبدهم . وهكذا كتب الضابط محضر الاعترافات و أرسله إلى المحكمة . و كنتيجة ، كان ذلك أكثر من اعتراف !

كان يرافق عماد شرطيان لا يعرفان الا باب القاعة، كان أحدهما يشده من الذراع اليمنى و الآخر من اليسرى كأنهما يرفعانه ، يسرعان في الخطى. أما عماد فكان خائر القوى ،يجر رجليه بكل ثقل و يلهث.

وقف الشرطيان عند الباب . دخل عماد القاعة المركزية في هواء ساخن تختلط فيه أنفاس الحاضرين . أول ما وقعت عليه عينه هو إسماعيل الذي كان يجلس في الصفوف الأولى.

كان سكوت جنائزي يخيم في القاعة كأنهم كانوا ينتظرونه . و فعلاً، هذا ما كان . يصيح حينئذ رجل بثياب تشبه البزة ، لكنها غير متناسقة ; يضع طربوشا أحمرا على رأسه و حذاءًا جلديا ملمعا لكن كثرة الاستعمال تمثلت في قسماته التي لا يمكن عدها . " محكمة " ثم يجلس بعد ذلك في كرسي بجانب منصة القضاة. كانت مهمته هي قول تلك الكلمة التي تركت في قلب عماد أزيزا كأزيز النحل .

على منصة خشبية عريضة، كان يتموضع ثلاث قضاة (كلية) يترأسهم الأوسط . كان ستينيا ، حليق الوجه ،لا يحتاج الى قول شيء فقط عينيه تفيان بالغرض وكان ينعكس على تقاسيم وجهه عدد بنود القانون الجنائي و مدونة الأسرة اللذان حفظهما عن ظهر قلب. له سلطة هائلة على جميع من في القاعة ،إذ يقول لهم :

" إنكم اليوم في محكمتي ! "

أحس عماد بشيء من الدهشة ناهيك على أنها كانت فيه من البداية . عيناه تحاولان دون طائل استيعاب الحضور الهائل و الثلاثي المخضرم امامه . كان ذلك بالنسبة له كمسرحية تؤثر أحداثها سلبا عليه ، مسرحية لم يكتبها موليير ،فقط قدره هو الذي كتب سطورها ببراعة.

أخذ القاضي الذي يأخذ زمام الأمور يحدق في أوراق وضعها امامه ، ثم فتح الجلسة :

-" عماد أنت متهم بالمشاركة في الخيانة الزوجية و الدخول عنوة على رقية بتهمة الفساد ،الأفعال النصوص عليها و على عقوبتها في الفصول ... ماذا تقول حول المنسوب اليك؟ "

كان عماد يقف في قفص الاتهام يحدق في الأرض ،وقد تملكه الخوف من هاته التهم التي نزلت فجأة على مسامعه فقال بكل عفوية : " انا ... كانت تربطني علاقة برقية ،كنت ارغب الزواج بها . و لكنها ما زالت لم تطلعني على رأيها "

القاضي : كيف ؟ ألا تعلم بأنها متزوجة؟

عماد : لا يا سيدي ،أنا أدرى بذلك ،لكن علاقتها بزوجها لم تكن جيدة لذا تبين لي أنها ستكون الأصلح لي ،سيدي "

القاضي (متهكما) : و من أنت لتعلم ما الأصلح لها؟

يرمق عماد القاضي نظرة طفل صغير فقد أمه في السوق فوجد الناس جميعها لا تعرفه و لا تعرف أمه، ثم قال :

-" أنا سيدي ... كنت أرى علاقتهما المتوترة في العمل "

القاضي(مرتفعا بشموخ) : نادوا على رقية (تقف رقية بجانب عماد) ما نوع العلاقة التي كانت تربطك بعماد ؟

رقية: لا شيء سيدي ،فقط زملاء عمل.

و بغتة ،صعدت تلك الحرارة التي تداهم الجسد البارد عرقا لعماد وأخذت تطفق في قرارة نفسه فأصبح كل شيء بالنسبة إليه قبيحا هائلا، وأن رقية هذه أصبحت جاحدة و لا شك و أنها تدربت على دورها الحالي مرات و مرات أمام زوجها الذي استفاقت فيه روح الحب القميئة . ولكنها لن تتقن شيئا لشدة غبائها و استسهالها للأمور .

القاضي (يتغامز مع رفيقيه على رقية) ثم يقول : " إننا نعلم مسبقا ،بأن عماد يوصلك بسيارته الى شقتك ،و أيضا شاهدك أحد الشهود معه في أحد المطاعم بمدينة طنجة "

رقية (تبدو واثقة) : نعم ،سيدي . ذهبت معه إلى المقهى مرة و كان زوجي بمعيتنا.

بدت عينا القاضي الغائرتين كما لو أنهما تخرقان الأرض، ثم هز رأسه:

-" من طلب اللقاء في الشقة ،أأنت أم هو ؟ "

رقية : " هو "

بدا القاضي متفاجئا لأن اللقاء في شقتها بدا غريبا ،لكنه لم يشأ ان يظهر ذلك لأنها ستكون درست ذلك بإتقان

-" لا بأس ،هو الذي دعاك للقاء في شقتك ،لكن هل كان ذلك أول لقاء لك به ؟ "

رقية " طبعا ،سيدي "

لوح القاضي بقلمه في الهواء، ثم سال رقية بموضوعية :" هل كنت تعلمين أن زوجك ليس في البيت ؟ " لأنه من خلال تصريحاته لدى

الشرطة القضائية قال بأنه يخرج الى المقهى على الساعة السابعة مساءًا و يعود على العاشرة ". ثم غمز القاضي رقية استفسارا و كأنه يعلم ما يدور في راسها .

رقية : لا ،سيدي ليس من الأمر شيء، حتى إنني أخبرت زوجي هاتفيا بأن عماد سيحل عندنا ضيفا !

تراجع القاضي الى الوراء على كرسيه العريض و أخذ يحدجها بنظرة استفسار وملامة مصغيا لأنفاسه الملتقطة صامتا، و قد أفسح لها المجال للتفكير ،لكن مسرحية ثقيلة كهذه فقد يعجز الممثلون الكبار عن أداء بعض أدوارها.

القاضي : دفاع رقية هل تؤكد المقال الافتتاحي و المذكرة التعقيبية ؟

دفاع رقية: نعم سيدي الرئيس ،السادة القضاة، إن موكلتي رقية امرأة شريفة، متزوجة وقد أدلينا بنسخة من عقد زواجها .

سيدي الرئيس إنه و لأسباب خارجة عن إرادتها استصدرت موكلتي حكما لتوقيف عماد الذي أراد ارغامها على ممارسة علاقة جنسية معه. وقبل هذا، ارتأت موكلتي ان تصلح الوضع معه في شقتها بعدما اصبح يعترض سبيلها ويتحرش بها أمام الملأ ،ولكن لسبب بسيط سيدي لم يحضر إسماعيل تلك الليلة لمناقشة الأمر .

هذا هو حال المحامون ،نصف أقواله ناتج عن مخيلتهم الغضة و انتقائهم لكلمات منمقة تقف على ميزان واحد : سيدي . هو فقط يتكلم في عكس التيار لملأ الفراغات في القضية لأن الكلام بالنسبة له أسهل من هضم البطاطس المسلوقة .

القاضي : نادوا على إسماعيل زوج السيدة رقية

نهض إسماعيل من مقعده ولم يكن يبدو علية أثر لوهن أو خنوع –فلا شك، أنه هو و زوجته و ذلك المحامي فصيح اللسان درسوا القضية بشكل مفصل وعمدوا الى ملء الفراغات فيها لكي لا يكون هناك ارتياب.

القاضي : هل هاتفتك زوجتك تلك الليلة بأن عماد قد يأتي شقتها ؟

إسماعيل: بالطبع، سيدي

اصطنع القاضي شيئا من الارتباك : لكن لماذا لم تأتي ؟ألا تعلم بأن ذلك ضروري للم شمل عائلتك؟ و صون كرامة زوجتك؟ ألست مهتما ؟

القى إسماعيل نظرة سريعة على زوجته ثم قال:

-" بلى سيدي ،لكنني كنت أخال عماد رجلا محترما ،متعقلا لا يقدر على لمس أشياء لا تخصه "

القاضي : " كلنا نصدم في أقرب الأشخاص إلينا ،بني " ثم أضاف و هو يضحك " الان ،إذا خيرناك بين شرب القهوة أو حماية زوجتك فستختار شرب القهوة حتما ... اه ،ذلك ليس مهما ! "

" دفاع عماد هل من سؤال؟ "

دفاع عماد : نعم ،سيدي الرئيس ،السادة القضاة ،حيث إنه بالرجوع الى أوراق الدعوة يتجلى أن السيدة رقية اتهمت موكلي بممارسة علاقة غير شرعية معها .

و لكن قبل هذا، فموكلي اكتشف ان العلاقة بين المدعية و زوجها لم تعد جيدة، ، و هذه تصرفات تضر بحياتهما الزوجية، لذا قرر الاعتناء بها و التكفل بها ، وحتى إنه قرر أن يتخذها زوجة له.

و لما دعته الى شقتها لمناقشة الأمر ،لم يفعل معها موكلي شيئا غير شرعي ،لأن الكشف الطبي يثبت صحة كلامي، و قد أدلينا بنسخة من التحليلات المذكورة ملتمسا من سيادتكم إعفاء موكلي و لكم واسع النظر.

القاضي : أجيببي

لم يؤثر ذلك على رقية لأن مسالة العلاقة الغير شرعية هي ثغرة فتحها المحامي الخاص بها ،و ذلك فقط لتوجيه كل التهم إلى عماد و إعطاء فرص أكبر لموكلته .

تظهر رقية تفهمها المصطنع في عينيها و بدا أن توترها منخفض : " اعذرني سيدي، لكن تلك الليلة كنت شبه غائبة من شدة الخوف و ربما أغمي علي...ولم أتذكر ما جرى ! " ثم بدأت تذرف دموعها بحرقة الظالمين المظلومين.

اندفع دفاع رقية قائلا : سيدي الرئيس، إن كل هذه الدفوعات غير قانونية، يود بها العارض عماد أن يبرئ نفسه مما نسب اليه و أن يدخل موكلتي في قضيته " ثم توقف قليلا ،لينظر الى المحامي الخاص بعماد و كأنه يقول سأنتصر عليك ثم استأنف حديثه قائلا :سيدي القاضي، ألتمس من سيادتكم الموقرة النظر في القضية بشكل صارم ،لأنه لو لم تتدخل السيدة السعدية لمكالمة السيد إسماعيل لكان تطور الأمر إلى جريمة قتل ! . و لكم واسع النظر"

في هذه اللحظة، كان عماد يموت فزعا ،يحرك رأسه باستياء كبير، يراقب الى ما سيؤول له الأمر . ومع هذا ،أصبح يبدو محبطا ، لم يعد له أمل في الظفر بالقضية ،يكاد يشبه من يتقبل أسوء الحقائق .

القاضي : " نادوا على الشاهدة الرئيسية "

تقدمت السيدة 'رشيدة ' الى منصة الشهود لترفع يمناها و تقسم بقول الحق .

قبل هذا كان إسماعيل قد تكفل بأمرها ، فقد أعطاها أزيد من ألفي درهم وذلك لإدلائها بشهادة في صالح زوجته . لكن رشيدة كانت بطريقة ما متدينة، و لا تجرؤ على معارضة القسم ، و من جهة أخرى ، كانت تحتاج مالا.

في البداية، استهلت رشيدة كلامها ببداية غير موفقة ،و خصوصا لصالح عماد . لتنتقل بعد ذلك إلى ما تمليه عليها رغباتها و أحاسيسها الجامحة و المكشرة في وجه كل من هو أفضل منها ، فكل الناس في نظرها شهوانيون و يحظون بالسعادة إلا هي .

-" سيدي القاضي ، بعد ان اعددت العشاء لأبنائي الأربعة الذين تخلى عنهم والدهم ،على الساعة التاسعة ، جلست معهم قرب التلفاز لمشاهدة فيلم مغربي. و لكنهم ناموا ... "

فقاطعها القاضي " أنا لا أحتاج شهادة حول حياتك في محكمتي ،أدخلي صلب الموضوع و الا غادري القاعة "

-" أعتذر سيدي فمعاناتي ليس لها عنوان –على العموم، سمعت صراخ السيدة رقية و كأن أحدا ما يشدها من شعرها . اقتربت من الباب لأسمع ما يجري، فتردد على مسامعي صوت ذكوري ; لم يكن صوت السيد إسماعيل بل صوت رجل اخر ! "

في هذه اللحظة ،كان إسماعيل يشعر بالعزة و أحس بأن الأمور تسير في صالحه، و هذا خطأ فادح قاتل ! فكيف له أن يثق في امرأة لا يثق فيها حتى أبنائها ،فهو يعلم أنهم لا يرغبون بالعيش معها ،اذ يلجؤون إلى جدتهم و في ذلك تجنب لحالاتها الهستيرية و مشاعرها السيئة التي تبث رمز الأم السيئة في النفوس.

ثم تضيف قائلة " أكثر من نصف ساعة و أذني على الباب استمع بحذر لما يجري بالداخل ... و فجأة ، أدركت ان الصرخة التي سمعتها قبل قليل ،لم تكن صرخة يا سيدي ، أنها ضحكة بصوت عال صادرة من السيدة رقية .

و تيقنت جيدا يا سيدي، بأن ذلك الصوت الذكوري الذي سمعته كان لطيفا، كان يقول لها اشياءًا جميلة لم اسمعها من زوجي السابق قط !" ثم انهالت بالبكاء، و هي تعلم أن ما قالته من شأنه أن يقلب القضية رأسا على عقب ليصبح الجميع في خضم قضية معقدة.

قال القاضي و بدا أنه مهتم بالموضوع :" اكملي من فضلك "

-" أعتذر سيدي ،لم أتمالك نفسي ... " ثم أخرجت منديلا تمسح به دموعها وأثناء ذلك ترمق رقية و إسماعيل بنظرة شريرة ثم تقول :

-"لم يكن تصرفهما طبيعيا فقد كان الإطراء مبالغا فيه ،و لربما كانا في حالة سكر"

بعد هذا الكلام مباشرة ، سقطت رقية مغشيا عليها ،لكن القاضي لم يفعل شيئا فقد أراد التكملة و لم يرد تمثيلا بائسا يميز من الوهلة الأخرى، أما إسماعيل فكان يتابع استعراض هذه الحقيرة العالي المستوى بتركيز جعله ذلك يفقد خلاياه العصبية ليدرك أن خططه البدائية ماضية نحو المقصلة . وكان عماد يشعر لحظتها سعادة تستعصي على القول في بؤس المحكمة اللامتناهي.

القاضي : دفاع عماد هل من سؤال؟

دفاع عماد : نعم ،سيدي الرئيس . إننا أدركنا الان ،و بشهادة السيدة الموقرة رشيدة التي أحضرتها المدعية بنفسها بأنه لم هناك أي تعنيف، لذلك ، فهذه تهمة لم يثبت صحتها في الادعاء .

القاضي و قد بدا في التحمس في القضية :" نادوا على الشهود الاخرين"

في هذه القضية كان شهود كثيرون، لقد كانوا عشرة ! توافدوا على منصة الشهود واحدا تلو الاخر لأداء القسم و للإدلاء بشهاداتهم.

كانت رقية قد استفاقت و قد بدأت تعطي نفسها ذرائع .

على كل حال المعركة لم تكن متكافئة !

-" سمعت شخصا يركض بسرعة عبر الدرج الى أعلى ،ثم بعدها ضربات مدوية متتالية في باب أحد الشقق ، لتصدح بعد ذلك صرخة شبيهة بصوت السيدة 'رشيدة '. فخرجت من باب شقتي فصعدت الدرج، فوجدت السيد إسماعيل أمام الباب ،و السيدة رقية مندفعة على السرير بجانب ذلك الشخص المدعو عماد " هكذا أدلى الساكن بالشقة 11.

كانت الشهادات متشابهة، كلها تصبو الى ما شاهدوه بعد اقتحام إسماعيل الشقة –خصوصا ، بعد صياح رشيدة ،لكن فقط شهادة الساكنة بالشقة 2 كانت مختلفة .

-" لم أرى السيد عماد على السرير ، فقد كانت السيدة رقية وحدها راقدة تبكي ... " هكذا أدلت بشهادتها التي لا طائل منها و كأنها ستنفع فعلا . ولأنها تسكن في الطابق الأول فقد جاءت متأخرة !

يحك القاضي رأسه ،ثم يشير الى دفاع رقية : " هل من سؤال ؟ "

-" لا سيدي الرئيس" قالها المحامي و هو يغوص في بركة من الخجل.

دفاع عماد : " سيدي الرئيس ،أود التشكيك بتصريح السيدة رقية 'فتصريحاتها كلها تصبو الى العكس. "

القاضي (بنبرة هادئة) :" على ما يبدو أن الاثنين مشاركين في الخيانة الزوجية "

و لكن هذا القاضي المحنك ما زال لم يقتنع ، فنظرا لكمية المعارف و المعارك التي خاضها و تربح غالبا ،فقد أحس بهفوة في القضية قريبة جدا.

استدار ناحية الشهود و قد ظهر على وجهه المجعد كل ما في نفس الشيوخ من الصلابة و الحكمة، و بإشارة منه عادوا الى أماكنهم ، ثم قال بهدوء و هو يخرج الكلمات قاسية بدون لغط :

-" سيد إسماعيل ،هل لي بهاتفك .من فضلك ! "

جعلت حدة هذا السؤال إسماعيل يشعر بالتوتر ،لأنه لم يسبق لقاض أن طلب هاتفا وسط المحكمة .

-" بالطبع، بالطبع سيدي ،تفضل "

أخذ القاضي الهاتف و تفحصه ،ثم دخل لائحة الاتصالات السابقة ليبحث في اليوم السادس من يونيو عن أي اتصال وارد من زوجته ،فلم يجده !

تنهد القاضي و هو في مزاج لا يتحمل الألاعيب ثم قال :

-" على ما يبدو أن هاتفك فارغ، لم اجد اتصال زوجتك في تلك الليلة !"

تمتم إسماعيل وشفتاه ترتجفان : " اه ... لقد مسحته "

القاضي (بصوت مرتفع) : لكن لماذا؟ ماذا سيقع إن بقي اتصال زوجتك؟ من المؤكد أن ذلك لن يحدث لك شيئا ... لكن لماذا ؟ لماذا لم تمحي اتصال رشيدة؟ أو اتصال المدعوة ب 'سناء' الذي وجدته مرارا ؟ "

كان كلام القاضي مثل ندبة على وجه إسماعيل ، أما رقية فاستعادت غيبوبتها حقيقية هذه المرة لتخلصها من هذا الكلام الشبيه بالطرش . فلسوء حظها، زوجها هو الاخر يخونها مع 'سناء ' تلك المتملقة من سنوات الجامعة –على الأرجح ،هي التي كانت ستكون في مكان رقية !

كان عماد يتوه بين هذه الأفكار الكثيرة . لكن كانت له رغبة في الاعتذار من رقية و رغبة في الدعوة بالرحمة لأخيه الذي فقده في البحر ،لكنه لم يحقق أي رغبة من هاذين ،و اكتفى برؤية رقية التي تتلوى وهي مستلقية أرضا ثم قال في نفسه :

-" يا عزيزتي، أيتها الغبية ،لم أكن مقدرا لك "

بعد المداولة ،أدلى الرئيس بما توصلت اليه المحكمة : سيتم الحكم على عماد نظرا لظروفه الاجتماعية و عدم سوابقه القضائية بستة أشهر بتهمة المشاركة في الخيانة الزوجية، أما رقية فسيتم الحكم عليها بسنة . وأخيرا، ستم الحكم على إسماعيل بشهرين بتهمة تضليل العدالة وتزوير الحقيقة"

الفصل السادس

كانت الشمس تسقط أشعتها الحارقة على طريق وعر، يملأه الحصى و التراب ،لم يكن يرى عماد حوله شيئا ; الغبار من كل جهة، العرق يحرق عينيه بشدة و يداه مكبلتان . السيارة مازالت لم تتوقف، أهي تسير ببطء؟ أم أن الطريق طويلة؟

لا شك وأن ذلك نوع من التعذيب النفسي ،يأخذ فيه السائق أطول طريق للوصول الى السجن ، و أن لا ينسى اختيار الممرات الرديئة حتى لو كلفه ذلك المرور من الرمال المتحركة لفعل ذلك و بكل سرور .

يا لتعاسة الإحساس بالواجب !

بدأ الغبار ينقشع ،تخفض السيارة من سرعتها . أصوات تتردد على جهاز اللاسلكي "انه هنا ... " " أجب... " " الزنزانة 13 "

بعد الوصول ، تم إخضاع عماد لتلك البروتوكولات السخيفة و الصارمة و التي لم يتذكر منها عماد سوى " أنت الان في سجن " .بعدها رافقه السجان إلى الزنزانة 13 مرورا بعدة أبواب على شكل كومة من القضبان الحديدية المتراصة المطلية بالأبيض ،و التي أخذت بقع الصدأ تنتشر عليها كالبرص .

حين جلس عماد على سرير له سمك إبهامه خلع بذلته . كان لعابه يسيل، عيناه متوقفتان ،و كان شعره المكشر يتهدل على جبينه بطريقة عشوائية.

و لما أطال الجلوس على هذه الوضعية، بدأ يبكي بكاءًا حقيقيا ،و يشهق بقوة . فلا بد و أن عقله استفاق لتحليل الأحداث التي مر بها، فلم يحبذها ! ام أنه استوعبها ،لكنه وجد استكمال الاحداث سيستمر في هذه الزنزانة القذرة لستة أشهر أخرى !

كان يفكر بأن ستة اشهر ليست كثيرة، فقد مكث أكثر من ذلك في بطن أمه ، و أيضا ، كان قد رأى على الجرائد و الأخبار أن كثيرا من الناس يدخلون السجن و قد حكم عليهم بعشر سنوات،عشرين و حتى السجن المؤبد .فما بال هؤلاء؟

كان يحاول أن يقنع نفسه التي لا تستجيب له وسط زنزانة رائحتها كرائحة الجبن الفاسد ، بأن السجن ليس بتلك الفظاعة، فقد أصبح يسمح فيه بمزاولة الأنشطة و مشاهدة التلفزيون و تبادل أطراف الحديث، وربما تخصيص أيام الاحاد لمشاهدة فيلم سينمائي . و إن كان السجين حسن الأخلاق فقد يسمح له بمشاهدة الأفلام السينمائية كل يوم ! و كان عماد يتسلى بسرد هذه التخيلات الجميلة و يتمنى أن تدوم ...

بعدها فكر في أن ينظر حوله، أن يكتشف معالم الزنزانة الحقيرة التي باتت من اليوم إقامته الوحيدة . في الركن، كان هناك ثقب في الأرض أمامه دلو ، أما في الوسط ،بل أمام رجليه بالضبط ;كانت هناك طاولة خشبية قصيرة ،نقش عليها أسماء كثيرة و ثعابين و خناجر . دار بحدة نحو اليمين ،ليجد أن الثعابين ،الخناجر ،... كانت تطوقه ،تبلع ريقه، فقد كانت منقوشة على جميع الواجهات بالأسود ، أما السهام فكانت مرسومة بلون أحمر داكن بدأت معالمه بالزوال ينم عن حب قاتل دفن في جدران هذه الزنزانة .

و بينما هو في هذه الاكتشافات ،قفز رجل من أعلى سريره ،حياه بأدب ثم جلس قرب الطاولة يشرب شايا . رفع عماد رأسه ليجد أن هناك شخص اخر يرقد فوقه في أعلى السرير . فتذكر حينئذ أنه عندما كان حرا ، كان قد اشترى قفصا خشبيا صغيرا ،ووضع فيه ثلاث طيور حسون ،فلم يعيشوا إلا أياما ! حاول عماد بكل قواه، أن يكون رجلا أخلاقيا ،أن يحتفظ بتلك الأفكار التي سردها قبل قليل، لأن فكرة الطيور الرهيبة شوشت تفكيره فلم يحتمل تقبل المزيفات و انكار الحقيقة. و لكن كل شيء غدا واضحا و أنه لا مكان لتلك التصورات الجميلة إلا في البرامج التلفزيونية المغربية .

في الصباح الباكر على الساعة السادسة صباحا . استيقظ عماد على خليط من الأصوات الكريهة ; صافرة تثقب الآذان ثم صليل رزمة المفاتيح التي يحملها السجانون معهم دائما يضربون بها القضبان الحديدية لكل زنزانة .

اندفع عماد على باب الزنزانة ينظر من خلال القضبان ليجد أمامه ممرا طويلا لا نهاية له، به عدة أبواب ... بعد برهة، يرى شخصا ببذلته الرسمية و رزمة المفاتيح على خصره يصيح بصوته الخشن:

-" أفيقوا ،لو أردتم النوم لبقيتم في بيوتكم "

و كان عماد كالبدوي الذي يدخل المدينة أول مرة ،يبدو مذعورا .لكن هنا ، كانت الحركة بالمدينة شبه معطلة، فسكانها فضلوا المكوث بشققهم الرديئة واكتفوا بثقوب على الجدران سموها نوافذا!

اقترب السجان من الزنزانة 13 .خطف عماد الفرصة لسؤاله ،ليتأكد بعد ذلك، أن ذلك الشخص نوع من الآلام النفسية الشرسة في هذا المكان.

-" هل سنفطر سيدي ؟ " قال عماد بنبرة مهذبة .

ارتمى السجان بيديه الثخينتين على باب الزنزانة يضرب القضبان حتى سقط عماد من الخوف أرضا !

-" اصمت ،حثالة !" يقول بصوته الخشن.

حتى قبل أن تجد عيناه المرفرفتان متسعا من الوقت لرؤية السجان وشفتاه تتمتمان بعبارات غير مفهومة ،سمع صوتا من الزنزانة " لا بأس".

عاد عماد ليجلس على سريره و رأسه بين ركبتيه ،لم يكن قد نام الليلة الماضية، بل أخذ يتقلب يمنة و شمالا عبثا و الأغطية الثقيلة تلسع سيقانه. ويفتح عينيه فيرى أمامه تلك الطاولة الصغيرة ليخيل له ان حولها اجتمع مساجين و افترقوا ، و ربما كثير منهم لقوا حتفهم بمرض السل..

و هي ما زالت صامدة بقوائمها الثلاث تحمل أعباء المساجين و تشكل ذكرى فقيرة من ذكرياتهم .

الى جانب هذا، كان هناك ضوء خافت ينبعث طول الليلة الماضية من فوقه، لكنه لم يقدر على أن ينبس بكلمة لأنه ما زال لم يعرف طباع المساجين بعد ، لكن رهبة الاسم تكفي . فالسجناء السابقون يناضلون كل يوم ضد اللحظات المبعثرة و المفككة ،حتى تصبح أفكارهم و تصرفاتهم كلها رائدة في مجال الجريمة، كحركات طائر كاسر ينتظر اللحظة المناسبة للانقضاض.

نظر مجددا الى الغرفة ، وهو يحك لحيته ،فأحس بريق مر يحرق لهاثه أمام هذا القدر من الضيق و السأم . و كان يطبق عينيه للهروب من تلك الصورة القبيحة، صورة الطاولة القصيرة التي تتجسد له في كل لحظاته. أصبح يرى ظلمة حالكة تتوسطها تلك الطاولة و قد سلط عليها الضوء من جميع النواحي كأنما يريدون عرضها في المزاد العلني .

لم يعد يطيق هذا الوضع، فعيناه تتجهان تلقائيا نحو تلك الطاولة لتقييده بآلام باردة تجلد روحه . و أكثر ما كان يثير غرائزه و يطبق عليها في تلك الظلمة التي تعرض فيها الطاولة قوامها هو جملة كتبت بملعقة ربما " بقدر ما نحيا ، بقدر ما نصبح كذبة " . صاح عماد في نفسه : " ما هذه الفلسفة القميئة في السجن ، من سيكتب شيئا كهذا على طاولة رديئة؟ ... أأصبح السجن ينتج فلاسفة؟ ام أن ذلك ليس إلا حماقة كتبها أحد المحكومين بالسجن المؤبد بعد أن اكتشف أن ما تبقى من حياته هو مجرد كذبة؟ اذ انه سيقضيه بجانب طاولة قصيرة ،يتكأ عليها و يشاركها أحزانه بالكتابة عليها ... "

لا شك في هذا ، فحقيقة هاته الطاولة تعود لعقود لأنه كتب على أحد ساقيها '1936' ، و ما كاد عماد يقرأ هذا التاريخ الذي يعود لقرابة قرن ! حتى بدا له أن هاته الطاولة قد تشاركها جيل كامل ،توارثوها بدون قرابة دموية ،بل بدافع الجريمة !

بدأت أصوات مزعجة بملء ذلك الممر الطويل : قرقعة الأقفال الصدئة و صليل رزمة المفاتيح الغليظة و أصوات كثيرة و يد رفيقة تربت على كتفه ايقظته من كابوس الطاولة .

في تلك اللحظة، كان وقع خطى ثقيلة يقترب من الزنزانة 13 و صرير لمفاتيح تترنح ثم تفتح الباب " 13، لديكم نصف ساعة ... الى الساحة ! "

خرج عماد من زنزانته ... كان جمع غفير من المساجين يشكل معالم ساحة السجن الرحبة ،و هذا كله ليس إلا نصفهم ; لأن السجانين لا يعمدون الى إخراج كل المساجين دفعة واحدة ، لأنهم لا يعلمون متى ستتآلف هذه الذئاب ليصعب السيطرة عليها.

كان هناك صف طويل من المساجين يجلسون على مقعد خشبي، بما فيهم عماد الذي كان يحدق بقلق . و لوهلة ، انتابته فكرة الهروب ، تلك الفكرة التي تجيء كل مستجد ، لكنه ما إن رفع رأسه حتى رأى الاسوار العملاقة و السميكة التي تعلوها أسلاك شائكة كهربائية ، و على كل سطح ،يتمركز الحراس مدججين بأسلحتهم النارية ... فتراجع فورا عن هذه الفكرة!

لحسن الحظ ،لم يسبق لأحد أن هرب ، لأن المساجين بخبرتهم الزنقاوية يلجؤون الى تحرير اصدقائهم و الزيادة في جيوشهم المنحطة التي تتكون أسلحتها من ; ملاعق ،عصي، احذية ... و بالتالي تندلع المعركة الدامية.

فالمساجين مثلهم مثل الطائر الذي قطعت اجنحته و وضع في قفص صغير ،ووضع القفص في غرفة مظلمة ضيقة ليس لها باب، و انما نافذة صغيرة تدخل أشعة الشمس و الهواء و الطعام أحيانا . قد يستطيع الطائر الخروج منها بمشقة، ،لكن خارج الغرفة وضعت قطط متمرسة، تتناوب بينها و مستعدة لأي ظرف من الظروف للانقضاض على طائرها الحبيس !

فما عساه سيفعل هذا الطائر ؟ فحتى في أبسط الظروف ،لن يستطيع الوصول إلى النافذة التي يراها تبعد عنه أميالا ! ــببساطة ،سينتظر لحظة قد يكون وجودها منعدما ،لذا فليأمل ... !

بعد ذلك ، ها هي عملية البيع و الشراء التي ستبدأ الآن . يفتعل المساجين شجارات معظم الأوقات، فيؤدي ذلك الى انشغال الحراس و العمل على تفريقهم. ووسط ذلك الجو المشحون بالحرية تارة و الحماس تارة أخرى، تتعالى قهقهات المساجين و المراهنات من خمس سجائر الى خمسين .

والأهم من هذا كله ، هو تبادل المخدرات بين المساجين خفية أو تصفية بعض الحسابات التي لم تكتمل خارجا باستعمال شفرات الحلاقة الصدئة أو الملاعق ; ملاعق تم شحذها مع بلاط الزنزانة الخشن فأصبح منظرها البشع أكثر حدة من فعاليتها في الذبح .

و في تلك اللحظة عينها، 'الغنيمة ' كما يسمونها ، كانت تزداد مدة الاستراحة الصباحية ، فقد تصل الى ساعة و أحيانا الى أربع ساعات! وما أحوجهم الى نسمات هواء بارد يلفح وجوههم في أصبحة يونيو .

و مهما كان المجتمع هنا يمثله السجناء ،فإن هذه اللحظة تتحدى الجرائم التي ارتكبوها وجها لوجه و تجعل منها سرورا و محبة .فما بالك بأشخاص لديهم كل شيء و لا يحبون أي شيء .

عرف عماد فيما بعد أن شريكه في الزنزانة اسمه 'رؤوف' والذي كان في هاته اللحظة يرقص على أنغام أناشيد مع مجموعة من المساجين أغلبهم عجائز !

ثم على حين غرة، و بينما الشجارات و المراهنات قائمة ،يقبل الحراس مفترسين ، حراس من نوع آخر بزي أسود و على رؤوسهم خوذات زرق . يلقون بأي شخص أمامهم ،فما يلبث المساجين أن يبدؤوا في الاصطفاف و تشكيل صفوف متراصة استعدادا للدخول إلى زنزاناتهم . لم يكن أحد يكلف نفسه عناء المحاولة و الاندفاع على هؤلاء الحراس، لأنهم يعلمون جيدا نوع العذاب الذي يظهرونه لمعارضيهم .

لكن الحرية و الكرامة شيئان مختلفان ، فحتى إن قمعت الحرية فإن الكرامة لا تفنى ، إذ يستخدم المساجين أفواههم الكريهة لإلقاء عباراتهم الفوضوية ،الزنقاوية " قاتلني رجلا لرجل يا ابن ... " " لو كنت في حينا لاقتلعنا ... "

ما كان أصحاب الجرائم الصغيرة يلقون بالا لشيء ،إذ يحسون بتعنتهم و بمدة سجنهم القصيرة ،فيكونون هم أكثر الأشخاص استعمالا لتلك الكلمات الساخطة .أما أصحاب الجرائم العظيمة ; الزعماء فيكتفون بالبصق على الأرض و التحديق في أعين السجانين ...

يتقدم آنذاك السجانون لتفتيش السجناء المشكوك في أمرهم و ذلك بإفراغ جيوبهم و فحص أكتافهم ،فيصادرون غنيمتهم التي أدركوها بعناء خلال رحلتهم القصيرة ،لكن ليس كل شيء ! فالحدث ما زال قائما ،إذ ان آخر شخص قد يتخلى عن كرامته هم أصحاب اللحي ،فقد كانوا يكونون جماعات ،يزعمون فيها أنها تدعو المساجين الى الهداية و الاستقامة . و في ذلك خدمة لمصالحهم .

فلينظروا إلى انفسهم أولا : أكثر المعذبين على الاطلاق في السجن ، أغلبهم هناك بتهمة النصب و الاحتيال على الأشخاص الذين يريدون أداء فريضة الحج، اذ يستولون على شقة معينة يتخذونها مكتبا ، وبتعاون مع بعض السلطات المختصة يدعون أن لهم رابطة مع شركة طيران وهمية ،فيجمعون ما يتسع لحقائبهم من المال ، ثم يغادرون ذلك المكتب و قد علقوا على بابه " النية هي أهم شيء ! " أما الصنف الثاني، والغنيون عن التعريف : المتهمون بتمويل الإرهاب أو المشاركة في أعمال إرهابية ... أما الصنف الثالث ،و الاكثر نذالة ، يلجؤون الى السحر والشعوذة لاستقطاب ضحاياهم و هم لا يعلمون حتى طبائع الانسان ، و لكن السذج و الساذجات تجدهم يدعونهم بالشيخ فلان أو الفقيه فلان ، فيعجبهم الأمر بالطبع. و إلى حد الآن ، هذا ليس تهمة ، وإنما هو تمهيد لما سيأتي بعد . فكلما كان نفوذ هؤلاء أكبر إلا و استقطبوا عددا لا بأس به من النساء الممسوسات واللواتي تعانين من الصرع أو العانسات ،فلا يجدون لحظة مناسبة أكثر من التي هي الان لإفراغ طاقاتهم الجنسية –بمعنى فلسفي ; الليبيدو . و ما إن يشرفوا على اشباع رغباتهم الجنسية التي لا تكبح حتى يجدوا أنفسهم بين أسوار السجن والذل يمطر عليهم مطرًا !

و بما أن السجن لا يخلو من الاغبياء ، فإن جماعات الهداية هذه تقوي نفوذها ، و تصبح أكبر و أكبر مع مرور الوقت . و يقودها في الغالب، شخص محكوم عليه بالسجن المؤبد له تاريخ حافل بالتخطيطات الإرهابية ،يدعونه بأبا الوليد أو أبي نواس و اشياءًا كهذه ..

و في تلك اللحظة التي يكون فيها التفتيش ،يرتمي أصحاب اللحي أرضا اعتقادا منهم ان ذلك دفاع عن كرامتهم ، فيبدؤون في نطق شعاراتهم الخاصة ،و إنهم لم يكونوا يدخلون في صراع مع الحراس ، ولكنهم دائما ما يرغبون بمعاملة خاصة لأنهم جند الحق في نظرهم ، و أن مكانهم في الجنة مع الحوريات و ليس مع السجناء . و قد كانوا لا يترددون لحظة عن إلقاء خطاباتهم الجهادية لغسل أدمغة المساجين وتحريضهم على التمرد ; ولهذا السبب كان السجانون يسيسوهم ويصبروا حتى يذيقوا ذرعا و يعودوا ادراجهم. –باختصار ،ليس من السهل تفريق جماعة كهذه و يحدث أنها في أوج غضبها.

بعد ساعات من عودة عماد الى الزنزانة 13 ، كانت رائحة غريبة تتصاعد من أعماق الممر ،رائحة تثير هيته لدرجة الاشمئزاز ، كان يحسها على لسانه مرة ، ولوهلة ظن أنها رائحة احتراق،.. احتراق جثث أحد المساجين !

و بقي يستطلع هاته الرائحة بانفعال عميق حتى إنه انغمس فيها تلقائيا. و خلال هذا الترقب ،بدأ تصفيق حاد مجنون ، تلاه صليل رزمة المفاتيح و ضرب القضبان الحديدية، كل هذا أصبح يشكل لذا عماد نغمة خشنة تنشب جوارحه. بعد ذلك ، يصل السجان الزنزانة 13 ، و يقول بصوته الأجش الجهري " 13، إلى الغذاء "

خرج عماد من زنزانته ... كان الغذاء يتكون من عدس و تكسيرة خبز و الماء طبعا ، و أحيانا ،في حالات العطاء ، يعطونهم سمكا أو بيضا مسلوقا ناهيك عن الطبخ الرديء الذي قد تهزل أمامه القطط ! فقد كان

يطبخ العدس في الماء بدون توابل كأنهم يعيدون إنباته ، ثم يضعون عليه ملحا . و ... هذا ما كان ، للأسف، لم تكن القائمة طويلة !

كانت لحظة الغذاء بالنسبة للمساجين ، لحظة جميلة تغطي بؤسهم و تلم شملهم . يتفننون فيها في الأكل و يتمنون أن تستمر طويلا ، لكن ما إن تنتهي المدة المحددة ، حتى يبدأ الشد و الجر ، و يهم الحراس بتفتيشهم بحثا عن الملاعق التي تختفي مباشرة بعد الغذاء . لكنهم بعد أن وجدوها مرارا قد اتخذت في الجيوب و الجوارب مقرا، أصبحوا يوزعون عليهم ملاعق بلاستيكية !

كان عماد جالسا في طاولة مكونة من ستة عشر شخصا، كان يأكل ويتفل الحصى الذي يصارع اسنانه .

-" إن الحصى غني بالحديد ! " قال أحد السجناء بنفس الطاولة.

سحقا للجوع الذي يمحي كل فضيلة ، و ينتزع من الانسان كرامته ومبادئه ، فهذا الطبخ مصمم لكي لا يشبع السجين أبدا ، و أن يبقى دوما تحت وطأة الجوع الدائم و سوء التغذية . فلم يكن عماد ، طوال حياته قد رأى طبخا مثل هذا ،مقرفا ، نيئا ، و ما كان يتصور أبدا أن يجده أمامه و لو في سوء الأحوال . فقد كان يسمع قبل تعرفه على هاته الأطباق الجحيمية أن السجين تصرف عليه ميزانية هامة في اليوم ، في حين أنه ما زال لم يجد ما يثبت شكوكه و التي ولت حقيقة مطلقة فيما بعد .

جلس بقربه رؤوف الذي رأى فيه الاحباط " لا بأس ،كل ما استطعت ، سأعوضك "

توقف عماد عن ازدراده لذلك العدس القميء ، ليستمر في النظر إلى هذا الشخص الذي جلس بجانبه توا " ماذا ؟ "

-" انتظر ، سوف ترى " قال رؤوف

أحس عماد بشيء من الصدق في كلام شريكه ، لكنه ما زال مذعورا من سر هذا الكلام الفجائي . حمل عماد عينيه ببطء و حاول أن يرى إن كان يحدق فيه أحد لكن لم يكن أحد، سوى أعين السجانين المثبتة على كل شيء.

لم يكن له في سؤال رؤوف مرة ثانية لأنه سيبدو كشخص ثرثار يفسد اللحظات لذا اكتفى بالتساؤل في نفسه . أله علاقة مع ذلك الطباخ ؟ أم انه سيرشي السجانين لإحضار طعام افضل ؟ لا ... هذا كله كلام خاطئ، سيقوم بالاستحواذ على طبق أحد المساجين الضعفاء؟ .. ثم يرمق رؤوف بعين خاطفة مطلعا على هيئته ... لا، إن رؤوف ليس بتلك الهيئة الوحشية أو بتلك التصرفات القبيحة التي تخول له ذلك ، لا لن يفعلها ..

لقد كان رؤوف رجلا طويلا، نحيفا، له شارب خفيف . كان عمره يناهز الخمسين و يضع نظارات شبيهة بتلك التي كان يضعها ذلك الطبيب الذي شخص مرضه عن السكري . " لكن رؤوف ليس بذلك السوء " كان يقول عماد.

انطلقت الصافرة، بدأ تصفيق السجانين يغمر القاعة حرارة و هيجانا . نهض عماد بدون أن ينبس ببنت شفة ، و تجاوز رؤوف الذي كان يقلب كتابا .وإذ اجتمع المساجين ، تقدم عماد في الممر الطويل في أعماق الظلمة ، كانت المفاتيح تتألق ببريقها .. وصل زنزانته ففتحها له سجان " ادلف ،بلا تماطل "

كان هناك في الزنزانة 13 رجل خشن الوجه بملامح جامدة ! فقد كانت عيناه متوقفتان ،منصوبتان على تلك الطاولة اللعينة التي كان عليها زيتون أسود وقطعة خبز .

لم يكن عماد قادرا على تكليمه ، فشخص مثل ذاك لم يكن عاديا ، وهذا هو مشكل الزنزانة : لا يمكنك اختيار شركائك ! و اجتاحت عماد رجفة مشؤومة جعلته يحدق حواليه و هو يتصبب عرقا ... نعم ، كان ذلك الرجل هو الشريك الثالث الذي كان قد رآه راقدا على سريره العلوي.

و هكذا جلس عماد على سريره و قد تملكه الذهول ،فأول ما خطر بباله هو لماذا لا يتغذى هذا الوحش بنظراته مع المساجين ؟ أهو خطير عليهم؟ و هين علينا ؟ أم أنه من الطبقة الأخرى من المساجين ؟ و بدأ يتذكر كلامًا قد سمعه من أحد المساجين ، أن هناك أناسا لا يتغذون مع المساجين العاديين ، بل لهم غرف خاصة مجهزة بأجهزة التلفزيون، وأريكة و طاولة أحسن بكثير من هاته التي امامه ،التي تضامنت مع شخص بارد الملامح كأنه يخفيها بسائل خفي، فأصبح الأمر أشبه بتمثال بدائي تم نحته من الطين، فهطل عليه المطر فأصبح يشكل مشهدا رائدا في الفظاعة !

لكن ذلك لم يكن يكفي، لأن هذا الشخص بعيد كل البعد عن تلك الطبقة الراقية ، فحتى لو كان منهم ، لكان ذلك ورقة رابحة ، و لأصبحت الزنزانة 13 غرفة من فندق بثلاث نجوم !

فجأة، زالت كل تلك الشكوك و اتضح كل خفي . عجز عماد عن الحركة وشلت أوصاله و كل ذلك لتأتي شكوك أكبر بكثير عندما اكتشف أن رؤوف لم يعد بعد الى الزنزانة ... أو أنه لن يعود أبدا !

كان عماد آنذاك، كضحية من ضحايا الصدفة الغريبة ، تلك الغرابة التي يشنها السجن على المستجدين فيتركهم بلا حول و لا قوة . و كان شريكه الثالث هو الآخر عاجزا عن الحركة يحدق في زيتونه الأسود ، و إن المرء عندما يربط بشخص كهذا فانه لا يصبح إلا جزءا من تلك الهالة الغريبة التي ينشرها حوله، تبدو لعماد تقترب شيئا فشيئا لتجتاحه و سط هذا الصمت العتيق . تراجع عماد على سريره ، يسند ظهره الى الحائط

و قد تصاعدت زفراته و تجسمت أنفاسه، فاعتقد ان رؤوف انتهت مدة سجنه !

و ربما إدارة السجن الآن، تسعى لوضع سجين ثالث في الزنزانة 13 ; سجين جديد غريب يساند عماد في وحدته ضد هذا الطاغية المتجرد أمامه، أم أنه سيكون سجينا طاغية بدوره يدخل السجن أكثر مما يدخل بيته !

طمئن عماد نفسه بأن الأشخاص لا يمكن رؤيتهم رؤية كلية من جميع الزوايا ، لذلك إن كان ينظر الى وجه أحد فليس بوسعه رؤية رجليه ، وان معرفة الغير مستحيلة . لكن ، من جهة أخرى ، كانت أفكار مارتن هايدغر تنخر مخه ، وتفند كلامه و أن الغير كينونته متجسدة على ملامحه ... و بتضارب أفكاره الفلسفية التي لا يحبذ اطلاقا ان تنتابه في مكان كالزنزانة 13 ، و الوهن الذي تبعثه حقنة الانسولين التي اتخذت موضعها في بطنه ، استلقى على سريره فنام.

الفصل السابع

في اليوم التالي، استيقظ عماد على صرير عربة ، كان صوتها يغدو أقرب وأقرب من الزنزانة 13 . اندفع عماد نحو الباب الحديدي فيما كان ذلك السجين الآخر مستلقى على الأرض يغط في نوم عميق ، و كان الذباب ينفر من شخيره و يقع على الطاولة التي لم يقدر عماد على التحديق فيها .

ما تزال العربة بعيدة في الممر الطويل المظلم ،و لكن بالإمكان التنبؤ بالشمس وراء الغيوم .وكان عماد بالرغم من وهنه يسمع صوتا مألوفا يصدح في ذلك الممر مترددا بين جدران الزنزانات كمغارة انسدت من بابيها !

-" كتب ، كتب ... "

توقفت العربة ،يسمع عماد صوتا يصل ببطء أذنيه ، صوت سجين من الزنزانة 8 أو 9 : " مجلات إباحية .."

-" لا أعتقد ذلك ، لقد نفذت ! " يقول الصوت المألوف

ثم بدأ صوت السجين الساخر البشع بالتعالي :

-" انه يوم الأربعاء ، يا ابن ... ، اتنتظر مني أن أفعلها في قط ،فحتى القطط انقرضت في هذا السجن ! "

بعد هذا الكلام ،تعالت صيحات صاخبة مرحة ،بعضها يمدح و الاخر يرضخ ، و كان اسم واحد يردد وسط هاته الضوضاء و بأصوات مختلفة : " عبدو " ، " عبدو " ...

لم يفهم عماد شيئا ، كان كالأطرش في الزفة ، و أكثر ما جذب انتباهه هو ذلك الاسم الذي ما زال يتردد و يشكل اغنية غير متناسقة مع صرير العربة التي أخذت تقترب من الزنزانة 13 .

سمع عماد خشخشة فالتفت ورائه ، فرأى ابتسامة جافة أخذت معالمها على ذلك الكائن المستلقي أرضا و عيناه مغمضتان –لا شك و انه يحلم، أم أن يوم الأربعاء هذا يجعله يغير قليلا من ملامحه الباردة .

وصلت العربة ... كان يقودها خمسيني بنظارات و شارب خفيف ، وبأدبه المعتاد ألقى جملة لم يسمعها عماد طول الممر الضيق الذي يضم اكثر من ستة عشر زنزانة :

-" ماذا تحب أن تقرأ يا شريكي (عماد) ؟ رواية غرامية ،بوليسية... "

كفى من التفاهة الآن ، كفى من الخيبة التي تمزق القلب ، لم يعد بإمكان عماد أن يصبر لحظة ثم صاح كطفل صغير رأى والده بعدما انتظره يوما كاملا حتى يعود من عمله :

-" رؤوف... رواية غرامية من فضلك ! "

قال رؤوف باستحياء :

-" لا اعتقد أنك تحبذ الروايات الغرامية في وضعك هذا، فقد يكون الغرام المشؤوم هو... لكن، لابأس خذها، إنها لغادة السمان."

دخل عماد في دوامة تقود الى العدم و إما الى الجنون، العدم افضل ! لم يعد يحتمل الوقوف أمام قارئ الأفكار هذا الذي يجره الى أعتى الحالات

بؤسا . مرضه وقمعه، الطبيب و رقية . و بعينين معصوبتين عن الرؤية يقف عماد متسمرا أمام القضبان الحديدية ، بينما يقفز شخص من ورائه، الذي كان كلاعب لا بد من وجوده يظهر في المحن :

-" رؤوف ،هل أحضرتها ؟ ... "

-" هون عليك يا عصام "

و بينما الحفلة الصاخبة ما زالت قائمة ، استغل رؤوف الوضع و أخرج شيئا ملفوفا في كتان كبير أعطاه له ثم ذهب. لم يستطع عماد أن يعبر عن مدى مرارة الصدمة التي أحس بها في تلك اللحظة ثم قال :

-" ايه ،أنت ! اسمك عصام ... ما ذلك ؟ "

كان فرط العاطفة يطغى على عصام ،حيث صعد الى مكانه في قفزة واحدة : " نعم ،نعم "

فلا يعتقد عماد أن ذلك الشيء الملفوف جميل فحسب، بل كفيل بإيقاظ وحش من سبات عميق و جعله يعيش من الآن فصاعدا خارج المجتمع البارد الذي باتت قوانينه ملغية تماما !

انتاب عماد ذلك الفضول الرخو الذي ينشرح له صدر الانسانيين و الذي يجعل من الخوف زائلا ، و تفقد فيه البراءة حقوقها – الشيء الذي دفعه الى تمحيص ما بين يدي عصام ... كانت هناك نساء ، نساء عاريات، شابات ، تجعل السجين يهرب من العذاب الذي لا تحتمله المخيلة ، العذاب النفسي الذي ترزح دوما تحت ثقله . لقد كان ذلك مجلة اباحية اذخرها رؤوف لصديقه الوحيد .

دقت ساعة الاستراحة الصباحية ، خرج المساجين كعادتهم إلى الساحة الرحبة، كان هناك عجائز يلعبون الشطرنج على الأرض ، مربعات صغيرة رسمت بطبشورة بيضاء على أرضية الساحة المعبدة ، لم يكن

هناك لا فارس و لا حصان و لا أي شيء ، ما كان هناك هو أغطية المشروبات الغازية التي يشربها السجانون فيهرع هؤلاء الى التقاطها، كانوا يلعبون بتركيز في جو حماسي ،خال من ضوضاء الحياة ، لكنه لم يكن يخلو من عبارات السجن التي يدرسونها أبا عن جد " تقدم عندي، افترسك " ، " اه ،استيقظت اميرتك " مما يعني أنه فطن بخطته ، " حصانك مريض و ساخذه معي ... " مما يعني أنه سد الطريق عنه . وكانت هذه الكلمات تجد استقبالا كبيرا لدى أذني عماد ، فقد كانت شيئا هاما له للعيش في هذه البيئة .

على مقربة من هؤلاء ،كانت هناك جمهرة من المساجين ،اقترب عماد و دس رأسه بينهم، لم يحتمل و سرعان ما أخرجه، إذ كانت رائحة العرق حارة تكاد تفقده حاسة الشم خاصته و ترمد عينيه ; لقد كان سجينان يتعاركان بالأيدي ، أحدهما يضع وشما رديئا على كتفه الايسر الضخم ، عقرب لها وجه ضاحك !

بطبيعتها، العقرب لا تضحك و إن ضحكت فلن يرى شيء لسواد وجهها، لكن ربما ذلك يمثل شخصيته ... إلا ان رسمة كتلك لن تمثل أكثر من ذبابة ضاحكة، لأن ذلك الشخص بجسده الضخم و دهونه الساطعة غلب على يد شاب عشريني أهلكته السجائر الرخيصة ، تلك السجائر التي كتب عليها التدخين يقتل – و قد كانت الجائزة ، سيجارة من هذا النوع !

بجسده الضخم ، لم يستطع الإطاحة بشاب ضعيف ،هزيل في لعبة كان بإمكانه أن يكتفي فيها بإبقاء ساعده واقفا ، بينما الطرف الآخر سيصارع ذلك العمود حتى تستنزف طاقته ،فلا يسعه إلا أن يسقط يده !

و بما أنه لم يتقبل الهزيمة ، وقف الضخم ،يضرب قبضتيه المضمومتين على الطاولة . الدم يسيل من مرفقه، يحاول عبثا أن يغطي اخفاقه - بالأحرى، غبائه . لأنه اكتشف حينئذ أن سبب خسارته هو وضع مرفقه على مسمار بارز من الطاولة أخذ ينخر ساعده طول المحاولة ! و لأن

مساحة الطاولة هي نفسها مساحة ذراعه، لم يسعه الهرب من وخزة المسمار الثاقبة.

استدار الشاب و هو يدخن سيجارته ، نفث الدخان و قال له :

-" انظر لنفسك ! جسدك كله اثداء كالكلبة "

انفجر الجميع ضاحكا بابتسامات ساذجة عذبة ، و هم يعلمون إلى ما سيؤول اليه الأمر . كانت عينا الضخم تقدحان شرًا ، فمن الغريب أن يتسامح مع ضحيته إلا إن غرز ذلك المسمار اللعين في جبينه ،و هكذا كانت القصة ، ليحدث ذلك الشجار اليومي الذي يستدعي تدخل الحراس بعصيهم و خوذاتهم الزرق . وكذلك ،انتهت النزهة اليوم باكرا. حاول أصحاب اللحي إثارة بعض الشغب ،لكن سرعان ما هدنت الأوضاع ومشطوا عن لحيتهم و التحقوا بالصف .

كان عماد ينظر بكثب ، و هو يحاول جاهدا فهم سبب هذا الركود ، هذا الرضى الزائف، الغريب ، حيث لم يقم المساجين بإلقاء عباراتهم الساخطة و إثارة غضب الحراس بخلع قمصانهم و التلويح بها ... و أيضا، الأكثر غرابة ،هو أن الحراس لم يفتشوا المساجين هذه المرة !

كل هذا أصبح يشكل لدى عماد وهما شائعا، يفاجئه دوما . فحتى المساجين الذين يعرفون أن القوانين موجودة لكنهم بعيدون عن تطبيقها، انضموا الى صفوفهم دون تماطل كأنهم يترقبون شيئا مجيدا !

سأل عماد أحد المساجين : " ما الذي يحدث ؟ "

-" إنه يوم الأربعاء ،يا أحمق "

سكت عماد قليلا ثم أضاف " و ما الجديد في يوم الأربعاء؟ "

أخذ ذلك السجين يرمقه بنظرة ساخرة ،معيبة ،ثم بدأ في لمز أصدقائه وهو يصيح :

-" إنه لم يعرف يوم الأربعاء ... يا له من أحمق ! إنه يستحق أن أدوس عليه بقدمي "

نظر إليه عماد ليجد أن هذا الحقير ،منعدم الاخلاق أمامه ،مقعد ! يتربع على كرسيه المتحرك ،إذ لا قدمان له – بالأحرى، مشلولتان !

أخذت عماد بعض الشفقة فلم يرد عليه ، فاكتفى بقلبه من كرسيه المتحرك بكل سرور و هو يقول بمشقة " دس علي ... "

لم يكن يريد أن يظهر ضعيفا أمام عاجز كهذا، نكرة .وكان تكفيه مجرد حركة يثبت بها وجوده في السجن و يقضي فيها الستة أشهر في مهابة.

عاد عماد الى زنزانته، أول ما وجد أمامه هو تلك الطاولة التي تذكره بخوفه في كل مرة فركلها ... ،توجه نحو سريره ثم استلقى.

كان عصام يتمتم و قد بانت على محياه لوائح الغم و الغضب فصاح :

-" إنها العصبية، العصبية المطلقة . من تحسب نفسك؟ "

و سرعان ما تدخل رؤوف لفض النزاع " ليس هكذا ،فقط اعذره على وقاحته"

كان عصام منزويا في ركن الزنزانة ،يتكلم و عيناه منصوبتان بمرارة على عماد ،لا يرمش و لا يحرك ساكنا ،يصيح فقط :

-" لا تقل لي إنه لا يقصدها ،أي شخص يفعلها بهذه الطريقة فهو يقصدها حقا ... إنها طاولتي ! "

نهض عماد من سريره و قواه كلها مشدودة في هواء جاف ثم قال :

-" سحقا لك ،شخص مزعج "

في خليط من الهيجان ،رفع عماد تلك الطاولة المشؤومة و ألقى بها على عماد كأنها لا شيء ، ثم اندفع نحوه غاضبا و في يده ملعقة معقوفة وهو يقول " سأقتلك يا ابن ... " إلا أن رؤوف أوقفه .

استطرد عماد يقول في صوت ساخر: " إنك لا تعني ذلك . اذهب الى نسائك اللاموجودات و حدق في صورهن . أبله ! "

سحب رؤوف نفسا و قال كشخص مغلوب على أمره "بلى ،إنه يعني ذلك. ولكن اعذرني أنت لا تريد سماع قصته "

و يختفي لحظتها كل الحماس الذي بدأ يسري في عروق عماد و الثقة المفرطة التي أخذ يضعها في نفسه المضطربة التي استنفذت الوحدة قواها . فلقد نسي فكرة السجن و ما يضمه من أشكال مروعة ،و التي حتى الشارع لم يعد يحتملها فتخلى عنها و أودى بها حبيسة الجدران الضيقة والوسخة .

بدأ ذلك الطنين الحاد يتخبط في رأس عماد، تشجع قليلا و تقدم لكنه انعطف نحو غير المتوقع :

-" حسنا لكل منا شهواته، نزواته ،أنا لا الومك على تصرفاتك الغريبة. لكن لا يمكنك أن تقتل شخصا بسبب طاولة، طاولة منحوسة تتغذى على روحك البريئة و تعوجها عن طيبتها "

خلع عصام سترته النتنة و رماها في وجه عماد ،وبدأ يتمتم بكلمات غير مفهومة وهو يسد قبضتيه المضمومتين اللتان تبدوان كوحش كاسر لن يتوقف حتى يمزق الجثة قطعا لا متناهية . لكن ما حدث جعل عماد يساوره العجب مما يرى . العجب حينما يكون سحر الكلمات أقوى من السحر عينه !

كانت الرغوة تفيض من فم عصام و هو مازال خامدا في مكانه ... جلس القرفصاء على طاولته ،يتضور جوعا ،ينتظر أحدا ان يطعمه قليلا من الحياة ،السعادة بوجهها الشامل . وضع رأسه الصغير بين يدي الوحش خاصته ثم رجع الى حالته المعتادة ; التحديق في اللاشيء بعينين متوقفتين.

جلس رؤوف على الأرض ،على البلاط البارد الوسخ بجانب صديقه الوحيد الذي يعتلي طاولته ، ثم قال له و هو يأخذ بيده :

-" لا تأسف على شيء ،أنت الآن عصام آخر . حري بك أن تتبدل ،أن نتحرف خطوة قصيرة عن عصام القديم و إلا قتلتني و مت وحيدا ! "

استدارت عينا عصام نحو رؤوف ،يرمقه بعين ودود ،لأن سنوات مضت قضاها متربعا على عرش الوحدة و الضجر و نفس الشخص يقول له نفس الكلام بدون ملل او كلل ،يسعى لتخليصه من هذا العالم بكل ما أتى به من غريب و قبيح . إلا أنه ما زال لم يخطو تلك الخطوة القصيرة .

في هذه اللحظة ،كان عماد يحلل كلمة شنيعة بعناد ; إنها القتل ،لقد كان يحس بأن الشخص الماثل أمامه على هضبته الخشبية حاملا سيفه المتمثل في ملعقة معقوفة ،متفنن في القتل . ليس هكذا ،بل يقتل من يشاء و متى يشاء .

" سحقا، من هذا الشخص الذي لا يقيم اعتبارا لقداسة الروح البشرية، الذي تم وضعه بالزنزانة 13 " قال عماد في نفسه.

والآن، أدرك عماد لماذا لا يتغذى هذا الشخص مع المساجين الاخرين ;فلا أحد يعلم ماذا يملي عليه عقله الجامد ،المائل نحو هتك الأرواح البشرية !

في ذلك الوقت ،بدأ عصام بالبكاء، دمعات متوقفة في عينيه الناعستين . وكان عماد يحس أن تلك ليست دموعا بل طقوسا حقيرة يقوم بها قبل قتل

ضحاياه. فالتماسيح هي الأخرى تبكي بعد قتل فريستها فليسألوها عن ذلك !

و بغتة، استطرد يقول عصام و قد ارتعشت شفتاه :

-" سلامي إلى الضحايا التي بطشت بها ،فلتقل لهم اني نادم بكل صدق !"

و سرعان ما ارتمى عماد على باب الزنزانة، يضربه بقبضتيه المجردتين و يصيح بأعلى صوته ،لأنه كان يرى في كلام عصام تعويذة شيطانية استعدادا للذبح الشنيع الذي بات يغطيه بندمه القذر الذي لن يأبه له أحد . فالروح لا تعيش في الجسد مرتين !

كانت هناك خطوات لحذاء ثقيل تقترب ،تلاه ضرب على القضبان الحديدية ليصل بعد ذلك سجان يستقصي الخبر :

-" ما بالك أنت ؟ لماذا تزعجنا ؟ تراجع ... "

يعيد عماد اتصاله مع الواقع ، و يقول في عجلة : " إن ذلك السجين يريد قتلي" و أشار له ناحية عصام

أشاح السجان بنظره داخل الزنزانة، ثم تراجع وقد تهاطل عرق بارد رقيق على جبينه ،ثم همس في أذن عماد قائلا:

-" أنا لا شأن لي بوضعك في هذه الزنزانة معه ... لكن ،حاول ،قل له إن أمك ستأتي للزيارة "

أحس عماد أن تلك الكذبة لن تنطلي عليه – ببساطة، هو غارق في عالمه المتشنج لذا فلن يستمع لها و لن يتوقف حتى يرتكب جريمة قتل !

-" هل فعلا له أم ؟ ... هل ذلك ينفع فعلا ؟ " قال عماد

ارتبك السجان قليلا ثم قال " الأمر صعب عليك، و لكن الأمر يجدي نفعا في كل مرة .. بيني و بينك ، لقد قتل أمه و هو ما زال يعتقد أنها ما زالت راقدة في المستشفى ! "

سكت قليلا ثم أضاف و الخجل يحمر وجنتيه " ليكن في علمك فقط ،لقد قتل زوجته أيضا !! "

-" ح .. سنا ،سأجرب .."

-" سأذهب .. فتحضيرات يوم الأربعاء ما تزال أمامي " قال السجان وهو في عجلة من أمره.

لم يصعق عماد من سماع القصة القصيرة المفجعة ،لأن الخوف و البؤس و الوحدة صعقوه مرات و مرات حتى أصبح بطريقة ما عازلا، يتحدى الطبيعة بقواها الخارقة . فكل ما لا يقتله ،يجعله أكثر قوة .

و في هذه اللحظة، تجاوز السجن و تحدياته و رجع به عقله إلى ما يخذل كل التوقعات . يرى جثة أخيه متجردة أمامه ،شفتاه زرقاوان و شعره أشيب ، وهو متأكد أن تلك النقط على كتفه ليست نقطا، بل هو قرش أسبل فكه بما فيه من أنياب ليخلف تلك الأمارات الجافة. هذا المشهد الخامد الذي بعث من أعماق الهوس أصبح يتكرر في ذهنه حتى الاعياء.

يهدأ عقله استعدادا لتخيلات بغيضة أخرى .. يرى رقية عجوزا قابعة في السجن ،تضرب أفخاذها و تصيح كمجنونة و قد ظهر على وجهها المصفر كل ما في نفس النساء من القنوط و النواح ...

ففي هذا السجن توفي عماد القديم ،عماد المحاسب المخلص ،ماتت اللحظات الكئيبة التي حن لها حنين الرضيع لثدي هجره الحليب واستحكمه الهزال : قهوته الصباحية، سيارته الصغيرة، باب الشركة، بخار البحر البارد الصباحي ،شقته التي لطالما أرادها ان تكون قرب البحر ...

لقد أراد ان ينتقل من وحدته فقرر الاقتران ،و لما خطا بعض الخطوات الفاشلة توصل إلى وحدة أكثر ايلاما !

و ها هو يبدأ مرحلة جديدة من الحسرة و اللامبالاة ،كان كل شيء يدور في رأسه ثائرا ،كل ذكرى تريد أخذ وقتها و البروز بأبهى حلة ،بل وإنها تريد أخذ مكان الذكريات الأخرى لأن عالم الهو لا تحكمه قوانين ! كان شريط حياته ينعطف أمامه فارغا يضخم عينيه .

ووسط الجو الخانق للزنزانة، تصاعد وجه عماد اللامبالي و كفكرة تبدو انتحارية، جلس بجانب من تجردت أحاسيسه : عصام . قبل رأسه دون أن يحدق في وجهه ثم حنى رأسه و قال له في صوت واثق :

-" لن تأتي أمك أبدا "

-" أعلم " أجابه عصام

الفصل الثامن

عماد الآن هادئ ،الزنزانة 13 هادئة ، مر كل شيء ; كل حنق، غضب ،مرارة ... مر تماما . و بطريقة ضاربة في الجنون خرج من دوامة الخوف المسدودة التي القته فيها تلك الطاولة المشؤومة و ما صاحبها ، والتي ما لبثت أن تلقيه كما ألقاها حسب قوانينها ;العين بالعين.

دقت الساعة الحادي عشرة من يوم الأربعاء، يوم الأربعاء المنشود الذي كان التأهب و الغرابة من سماته .

فتح باب الزنزانة 13 ،دخلها سجان أسمر ،قصير ،بطنه المدور بارز من بزته يدفع به إلى الامام . توقف السجان عندما توقف بطنه الثقيل الذي يجره، عند الطاولة . لاحظ أن لا أحد يكترث له أو ينظر إليه، كان عماد راقدا في سريره، عصام على طاولته، رؤوف يقرأ كتاب "علم نفس الجماهير " في ركن الزنزانة ،رفع عينيه يستقصي من دخل وسرعان ما نصبهما مجددا على كتابه .

كان الخمود واضحا، أحس السجان بالوجل يلدغ وجهه ،أطرافه . لم يتمالك نفسه و أراد ان يفصح عن ما عنده . حدق أمامه ،كان عصام على الطاولة ... تراجع قليلا ثم قال بصوت مضطرب النبرات

-" آن وقت النذالة يا ... "

فقاطعه رؤوف " لا تكمل ... شكرا ! "

ابتسم السجان ابتسامة خبيثة ،أراحته من عبء اللحظة التي كانت تسممه، ثم أدار رأسه و خرج تاركا باب الزنزانة مفتوحا .

لم يعد هناك ما يدعو للقلق، للفزع ... كل شيء أصبح بديهيا لدى عماد، نهض من سريره ، حك بطنه تحت قميصه ثم حيى صديقيه بإشارة برأسه.

قال رؤوف " فلنذهب " ثم تبعه الاثنان دون أدنى كلمة ،يعبران الممر الطويل المظلم ، كانت الزنزانات كلها مفتوحة تبدو كوحش خرافي فاتح فاه ،لا أثر للقاع في معدته ! لم يكن هناك أحد ...

توافد بعض السجناء القليلون من الزنزانات الأخرى ، الثالثة و العشرين والرابعة و العشرين ... لم يكن يظهر منهم أحد ، سوى أصواتهم القبيحة تعبر الظلمة لتشق أذني عماد . على ما يبدو أن الخبر وصلهم متأخرا أم أنهم ضاقوا ذرعا من أيام الأربعاء و ما يأتي منها ، أو ربما يريدون أن يصلوا في أوج الحدث ،إذ لا يريدون بدايات تافهة .

في نفسه ،كان يحس عماد أن هذا اليوم ،هذه اللحظة بالذات مهمة لدى المساجين جميعهم بدون استثناءات، لأن عصام هو الآخر خرج !

على كل حال ، لن تدوم طويلا، إذ سرعان ما سيكون حاملوا مفاتيح الزنزانات يتناثرون كالذباب على الكعك الفاسد ليضعوا خاتمة قبيحة ليوم الأربعاء . لكن نقص الحرية ،جدران الزنزانة الضيقة ،النافذة الصغيرة التي كان يشعر عماد أن جيلا من المساجين حاولوا توسيعها بأظافرهم و ملاعقهم ،وذلك ليس بدعوى الهرب بالتأكيد ، لأن ذلك سيكون مستحيلا . لكن فقط للنظر ،لتأمل العالم، تأمل الطيور التي تعلم أن ذلك سجين فلا تقترب منه ، فيكتفي السجين بسماع زقزقتها الصباحية اللينة التي تلج الأذن فتضفي شيئا من المرح الذي يكون أكثر من كافي.

و ما هي إلا دقائق حتى بلغ عماد فناءًا عظيما بصحبة رؤوف و عصام الذي رافقته ابتسامته السقيمة ،دون أن ننسى المساجين الآخرين الذين أسرعوا في خطاهم ليدركوا أماكنهم في اللحظة المناسبة .

كان هناك جمع غفير من المساجين، قرابة الخمسمائة سجين ! يجلسون

على البلاط الحجري . وسط الفناء ،كانت طاولة خشبية يشغلها الحراس و آمر السجن الذي يترأسهم ; ،يدخنون المالبورو ، و يتكلمون بطريقة مؤدبة في جو ينذر بنقاش جدي ، يشبكون أيديهم و يضعونها على الطاولة و الابتسامة تعلو محياهم ،ابتسامة مزيفة تجعل من العنف مريحا. يرشفون كؤوسا من القهوة السوداء أو الويسكي ... يضحكون على دعابات سخيفة يلقونها لخلق ذلك الجو الحامز ، حتى ان قهقهاتهم تسبق تلك الدعابات و هذا ما يدل على عدم استماعهم لها أصلا . فتظهر على وجوههم تقسيمات غير كاملة ،ملامح مضمحلة معالمها ...

كان المساجين يحتشدون بسرعة على الأرض الساخنة في ظهيرة هذا اليوم من شهر يونيو .أمامهم ، كانت هناك قناني خمر ،خمر رخيص

صنع من العنب أو ثمار الكرم التي تصبح فاسدة و بعض الخلطات المعروفة بجودتها في سلب الدماغ بسرعة مذهلة ، مع إضافة كمية ليست بعادية من الكحول ، و في الأخير صبها في قناني خضراء يوحي منظرها بالتجشؤ من أول لحظة . و فعلًا، هذا ما يحصل .كان السجناء آنذاك يتفننون في التجشؤ واحدا تلو الآخر ، عيونهم حمراء و عروقهم زرقاء بارزة تحت جلدهم المرهف الذي دبغته رطوبة السجن. يصدحون بأصواتهم الكريهة ،المزعجة التي ليس لها معنى بتاتا .

يغرقون ببطء في أحلامهم البائسة ، الطفولية . و إن هذا لا يعتبر مرحا أو تسلية من الأساس ، فهو تعذيب عقلي جسدي يفسدون به يومهم ، يوم الأربعاء الذي لطالما انتظروه . بعد ذلك، سيتأوهون ويصرخون لأيام في زنزاناتهم بسبب ادمانهم الشرس على هاته القناني القذرة و الذي أيقظوه لتوه ! فلا يجدون منها شيئا ، فلينتظروا إذا الأربعاء القادم .

لكن، رغم ذلك فالضرر ما زال جسيما و سيبقى كذلك ، لأن الأربعاء المنشودة ،وقت النذالة كما يدعونها ،لا تأتي كل أسبوع ! إنما تأتي الأسبوع الأول من فصل الشتاء أي الأسبوع الأول من شهر شتنبر، و الأسبوع الأول من فصل الصيف أي الأسبوع الأول من شهر يونيو .

عانى عماد في البحث عن أشخاص لا يسكرون ،و أخيرا ما وجد بعض المساجين جلس بجانبهم ، لم يكن يروق لهم .

كان عصام يتجرع هو الآخر من تلك المياه الكريهة ، إذ لا شك في كونه مخبولا ! أما رؤوف المتعقل دوما فقد حصل على قنينة من الويسكي من أحد الحراس .. أخذ يستمتع بها في ركن منزو من الفناء و هو يقرأ كتبه المعهودة.

كان هذا التناقض الواضح الجلي، يبدو مضحكا ; بين الحراس والمساجين، بين النظام و العبث ، هذان مفهومان متباينان لا يجتمعان أبدا إلا في مكان واحد وهو السجن.

وفيما كان عماد يتكلم بصعوبة مع تلك الجماعة الملتحية التي جلس بجانبها ،لفت انتباه الجمهور المنتشي نائب آمر السجن الذي ضرب بملعقته الفضية على كأس الويسكي خاصته . كان يدعوه المساجين ب "الفيل " لضخامته الغير طبيعية ، إذ كانت أزرار سترته دائما ما تكون غير مزررة من جهة البطن، و رغم منصبه ، كان ما يزال الوجه الفقير الذي ورثه عن والده الفلاح أو النجار أو العامل البسيط يرافقه .

تلا ذلك خطابه الذي يعاد في كل اربعاء :

-" أيها المساجين المحترمون ،حان الوقت لتحظوا ببعض الرفقة ، فلتدعوا ألم الأفعال السيئة بعيدا ،و لتعيشوا الجيدة "

فور جلوس الفيل ،كان كلام المساجين كلهم على اسم واحد : 'عبدو' ،هذا الاسم الذي أخذ ينخر دماغ المساجين الجدد الذين لم يتسنى لهم رؤيته ، وخاصة عماد الذي لم يعلم من تلك الجماعة الملتحية سوى أنه ملعون ; هكذا قال أحدهم.

و ها هي الأساطير الاغريقية تتخذ مجراها في مخيلة عماد. فبعد أن رأى مساجينا يبكون ،خيل له أن عبدو ذاك أحد الرهبان المتطرفين اللذين يدعون اتصالهم بالرب و يسعون إلى مسح خطايا السجناء و آثامهم وفي ذلك مسح لجيوبهم من كل درهم ، و في المقابل، إعطائهم ورقة بيضاء يضعوها في جيوبهم كانطلاقة لبدء حياة جديدة ،نقية ،خالية من العنف و الاحتيال ... لذلك يرى هؤلاء الملتحون أن ذلك خطيئة ضد الرب فيحسمون أنه ملعون.

و كانت فرضية أخرى تساور مخيلته بقوة، فبعد أن رأى ان المساجين يبتعدون من باب الفناء العظيم و أخذوا يتركون مساحة فارغة كفيلة بتحضير حلبة ! خيل لعماد أنها ستكون حلبة ملاكمة ،كما رآها في احد الأفلام الأمريكية ،يكون الملاكمين فيها مساجين أقوياء مختارين بعناية، يتقاتلون حتى الموت . " نعم، نعم ،ذلك ما سيكون " قال عماد. و أن عبدو هو البطل الباسل ،الذي لا يهزم أبدا ، له سجل حافل بالانتصارات ... و ما إن يكمل عددا محددا من سلسلة الانتصارات حتى يحظى بحريته. لذلك رأى هؤلاء الملتحون بأنه ملعون ،إذ لا يحبذون رؤية الدم و العنف و سلسلة الانتصارات التي يغتني من ورائها جلساء الطاولة الخشبية الطويلة .

كان عماد يتابع بنظراته تحركات المساجين و هي تبتعد من باب الفناء، كانت أعينهم مقلوبة انتعاشا تنتظر الحدث المميز . لقد كان ذلك احتضارا بطيئا لا يعرف قرارا .

بعد دقائق ، بدأ يسمع لجلبة كبيرة خلف الفناء ،أصوات مختلطة، غريبة، تذكر عماد بحب قديم عزيز على قلبه : لقد كانت أصواتا شبه نسائية.

تعالت أصوات المساجين و هم يبكون فرحا ، فهاته الأصوات التي سمعوها تضفي عليهم انسجاما لا مثيل له ، و يترجحون في الحياة كما لو كانوا في مرقص ،ليس للغم اثر في عيونهم ..

دلف الفناء رجل نحيف لم يكن طويلا ،له عينان رماديتان ، يتفحص السجناء بنظراته الأنثوية .

إنه 'عبدو' صاح المساجين دفعة واحدة، لقد كان بوجه فتاة، لا ينبت له لحية ولا شارب فقط القليل من الزغب هنا و هناك يتناثر على ذقنه.

حدق في الفناء بنظرة ساخرة متقنة كأنه يقول : " ها أنا ذا ،فلتنحنوا لي احتراما"

اقترب عماد للاستطلاع ،دنا بضع خطوات من عبدو تاركا مساحة صغيرة، فقد كان صافي الذهن و حاضره، كل شيء أمامه واضح وضوح الشمس.

خلف عبدو، عند عتبة الفناء تماما ،كانت تهم نساء بالدخول على شكل صف ثم تتوقف منتظرة الإشارة من عبدو. كانت لهن وجوه كالحة، يائسة، غير متبرجة و لا متزينة فقط بعض الحلي التي تتذكر أيام الحرية، و لم تكن ترتدين شيئا خاصا فقط ثياب منزلية مستهلكة .

على ما يبدو أنهن سجينات ! سجينات أتين من سجن النساء . و إن ما كان يشد الأبصار هو انقيادهم التام لهذا الشخص الضعيف ،الذي لا تبدو عليه هيبة و لا منزلة ،فقد كان يبدو مثل ضحايا الاغتصابات في السجون، كل شيء فيه كان يميل أنثويا حتى مشيته المتبخترة .

كانت حماسة حادة و خفية تتفاقم داخل قلوب هؤلاء العشاق المخمورين المنبطحين أرضا ، و قد أتى هذا المشهد كحقيقة مجنونة دفنت خيال عماد في العدم و تركته حبيس اللحظة ، أما بالنسبة للمساجين فكان ذلك حنينا الى مدن جميلة و زوجات تركنهن في البيوت و بنات صغيرات ورديات يكبرن بدون أب و بيوت خالية نفرت منها كلمة أبي، خالي، عمي ،جدي ... لأعوام ! فأصبحت تتشح برداء الأم و الأخت .

بعد أن تخلص من أولئك الملتحين ،أصبح عماد الآن وحيدا أمام هذا العالم العجيب ،فترك عذوبة المنظر تنسل إلى نفسه ، و فيما هو يندس بين المساجين اللذين احتشدوا ،بل تراموا على بعضهم أكواما كضحايا حرب ترمق الموت بعين ودود وتنتظر الخلاص ...

سمع عماد أحد المساجين القدامى يقول لأحد رفقائه :

-" إن عبدو ذاك من المحكومين بالسجن المؤبد "

ثم أردف قائلا : " لقد أفقد عذرية أكثر من تسعة عشر فتاة : كانت له شقة، يستضيف فيها ضحاياه ،شابات جميلات أغلبهن لا يتجاوز العشرين سنة ،كن يأتين عن طيب خاطر ، و ذلك بعد علموا أن آباه أحد الرجال المهمين في البلاد و أن له من الأراضي و الأملاك ما لا يعد ولا يحصى .يقضي معهن وقتا حميميا في التجوال بالسيارة و الرقص ثم يخدرهن، يخدرهن بكلام طيب و أوراق نقدية ، ثم يغتصبهن ! " ثم ضحك ساخرًا :" ثم يضربهن عرض الحائط "

سأله رفيقه متلهفا لسماع المزيد : " و كيف انتهى به المطاف هنا ؟ "

قال له بأدب و روية : " للجريمة عقاب "

سكت رفيقه لحظة ، و كأنه أحس أن كلامه لا يقع على الصدق ،تسعة عشر فتاة ! عدد كبير ، يجب أن يعدم هذا الحيوان الوحشي .

و في الوقت نفسه ،كان يتفحص 'عبدو' بنظراته ليستيقن صحة ما قيل له . لم يكن شكله الخالي من كل سمة رجولية يوحي بفعله جرائم كهذه. كان ينظر إلى عبدو و إلى رفيقه و الى السجينات و يفكر .. ، لم يتوصل الى نتيجة مؤكدة فاستطرد يقول في دهشة :

-" و ما الذي جعلك تقول ذلك عنه ؟ "

التفت اليه ذلك الستيني و الحزن باد على وجهه، ثم قال :

-" لقد كنت سائقه الخاص ! "

هزت الصدمة عماد أكثر مما هزت ذلك الفضولي ،الذي عكر صفو صديقه بأسئلته الكثيرة التي لا شأن له بها ، و التي لن تزيده شيئا . إذ اكتفى في نهاية المطاف بهز كتفيه ثم قال : " لا بأس ، فهمت " .

من ناحية أخرى ، جعل نشاط هاته الجلبة القائمة وسط الفناء عماد يشعر بتزايد السرور ،يراقب عن كثب ما الذي سيحدث قادما ، فقال في نفسه " إن عبدو له خبرة في ترويض السجينات ،قد يوهمهن بأنهن سيحظين بالمتعة لاحقا ! أو ربما ... " ولكن الفضول و الحماس أخذ يتملك عماد من مخمص قدميه حتى رأسه، فبادر بالإنصات لحوارات المساجين التي كانت كماء بارد يطفئ الحرارة اللاذعة التي يخلفها حب الاستطلاع في قلبه ; اذ علم أيضا ،أن السجينات اللواتي دخلن الفناء توا ، محكومات بثلاث سنوات على الأقل !

جلس عماد على البلاط الحجري بجانب رؤوف يقلب الفكر في كل هذا،لم يرغب في إزعاج صديقه الذي ثبت عينيه على كتابه . فزاد حنقه لأنه لم يجد مع من يتواصل ، فكان ألم ذلك مستمرا في خاطره ،إذ إن عدم القدرة على التواصل هو عذاب يؤرق الانسان و يجعله يرزح تحت ثقل الوحدة ،إنه شيء يضاهي نكران الجميل ،إذ سعى عماد إلى بذل مجهود لفتح محادثة لا يتوخى منها لا مصلحة و لا منفعة ،هو يريد فقط أن يتكلم، أن يغتنم نعمته ، فلا يجد ردا ... آنذاك يكون تحت مقصلة الصمت، التي تهلوس أذنيه و روحه ، و تجعله يراقب كل رمشة ،كل كلمة ، كل حركة، و يحللها في صالحه لإرضاء نفسه العطشة . وفي الأخير و بعد أن يعترض الحائط الإسمنتي سبيله، سيعزي ذلك إلى أنه أفضل بكثير من الطرف الآخر لذا لا حاجة له في تكليمه.

عانى عماد في كلامه مع رؤوف أكثر مما عانى مع أولئك الملتحين ،إذ إن الصمت ما زال يزحف عليه، يتلذذ في التشفي به ورؤيته مخنوقا وسط جو ملأته رطوبة السجن الخانقة . فأخذ عماد يتحرك لافتا انتباه رؤوف في كل لحظة لعله يفتح معه حوارا يطفئ شعلته .

-" ألم ترى عصام ؟ لم أره منذ أن دخلت الفناء " قال عماد

و بعد دقائق ليست بقصيرة، يحييه رؤوف بالنفي ،كان ذلك الجواب الجاف يجدد الوحدة في فكر عماد ،فلم يقو على بذل أي مجهود . " لكن لما هذه الرغبة الملحة في تكليم رؤوف ؟ هو لا يأبه بشأني ،لن آبه بشأنه " قال عماد هازا كتفيه و التفت الى الفناء و ما يحمله من صرخات، أهازيج و أغاني تؤثر فيه و تزيده إصرارا لمعرفة الأسباب و تترك في نفسه أثرا جديدا.

و بغتة صاح عبدو بصوته الرقيق :

-" لا تتمادوا ، و إلا لن تكون مرة قادمة "

انتصب عماد واقفا، حدق في رؤوف و كأنه يقول له " لن احتاجك مرة ثانية يا أيها المتعجرف .. حتى إنني لم أحتجك إنما كنت أتظاهر ! "

و فيما هم بالذهاب ،شده رؤوف من طرف سرواله، قال له " اجلس أقول لك..."

تنهد عماد ،ألقى برجله للتخلص من يد رؤوف ثم قال له بغضب : "ماذا تريد؟"

ابتسم رؤوف حتى برزت قواطعه الأمامية البيضاء ثم قال :

-" لا تقع في حب سجينة ... لا تشكرني فيما بعد ! " ثم عاد يقلب صفحات كتابه ' علم نفس الجماهير ' لفرويد.

لم يبد عماد أي جهد في الاستماع لرؤوف ،ضرب برجله على الأرض ثم سار مهرولا .

كان ذهنه خصبا، يلتقط بأريحية كل ما يراه ، و بينما هو على هذه الحال مرسلا نظراته إلى جميع من في الفناء ،لحظ شيئا غير معهود ،لقد كانت السجينات تجتمع بالمساجين على الأرض ،يضحكون، يلهون، يتغامزون

... كل ذلك كان يميل إلى تشكيل عائلة غريبة يجمعها حب و حنان لحظي عجيب لم يحس به عماد من قبل. وتملكه شعور ناعم ،و إحساس جميل يقوده إلى عتبة عالم جديد تصبح فيه التعاسة ،المرارة ،الجريمة ... حبا و إحساسا.

الفصل التاسع

كان عماد يأخذ شجاعته التي غادرته منذ زمن بعيد ،يلفها لفا متقنا حوله، و أخذ يحس بما يحسه الواحد من الراحة و الطمأنينة بعد الشفاء من حمى شنيعة قاسى على إثرها أياما . أراد أن يصنع مصيره ،مالكا كل الوقت ليشكل حركات اللحظة القادمة ،إذ قرر حينها أن يتعرف على سجينة ،و كانت هذه الفكرة تتوطد كلما رأى سجينا و بجانبه سجينة أو أكثر ،على الغالب ثلاث سجينات لواحد ! و هذا ما يفسر تفسيرا جليا الحنين إلى لحظة جميلة ،إلى التواصل المزعوم الذي يقود شعوبا ويحكمها ... لكن عماد لم يجد سجينة ملائمة يجالسها .

وبعد أن أعيى نفسه بالتجوال وسط الفناء و قد أخذت منه الغبطة ما أخذت .. جلس على وسادة زرقاء وجدها على الأرض، عليها زهور سوداء لكن نعومتها تحول بينه و بين قذارتها ،فقد أحس فيها عطف الصديق و حنانة الأم .لكنه بعد أن أمضى وقتا غير محدد ،أحس بالوحدة تخترقه، فلم يعد يستمتع بذلك . ثم راح يقلب جنبات الفناء بعينيه " أجل إنه رؤوف ،ذلك الحقير " قالها و هو لا يعنيها حقا ،فقط بدافع الحرج الحانق الذي جعله يحس كمخلوق لم يعهد له البشر مثيلا. و في تلك اللحظة، كان رؤوف قد تخلى عن كتابه وانغمس في حديثه مع شقراء جالسة بجانبه ،لم تكن بذلك الجمال، و لا شقراء أصلاً ،فقط صبغة قديمة أخذت رطوبة السجن تمحيها شيئا فشيئا ..في حين أن عماد كان يراها أجمل ما رأته عيناه ... إنها تبكي ،بكاءًا حقيقيا و تتوسد صدر رؤوف الذي كان كراهب يتلو عليها صلواته ،كان الدمع قد اتخذ مجرى توجهه تجاعيد حنكيها . لقد كانت كحافلة غرقت في بحيرة من الإحباط و الشقاء، وكان رؤوف بخبرته و حسن حديثه يدفعها شيئا فشيئا نحو البر ! و كان ينجح في ذلك ، لأن البكاء صفاء يتم فيه التخلص من الهموم التي تتجسد فيما بعد في تلك الدموع الثقيلة المالحة .

ترك ذلك في نفس عماد طابعا خاصا ،فقد تسرب إليه المنظر بشكل قوي، وفيما هو هكذا حتى قاطعت شروده سجينة جلست بجانبه وأخذت تسعل لجذب انتباهه . استدار عماد ليراها ، لم يتأثر ، فلحسن حظه ليست جميلة ،لكن لا بأس بها . اللحظة في وقتها.

ما زال السكوت مستمرا كأنهما يغطان في قيلولة الظهيرة ،كانت تنظر إليه وتنتظر منه محادثتها .. لكن عماد طافت به عزة نفس تقول له " لا تتكلم " .

بقيا هكذا لساعات، ملت من ذلك فأخذت تحدق في وجهه مباشرة ، وتثبت عينيها عليه و تقترب منه حتى يحس بنفسها الدافئ على وجهه لعله يتشجع، لكنه لم يتحدث ،كان يعلم ما يجري ، لكنه كان مفعما برغبة قوية

ملعونة تجعله يخرس في لحظات كهذه . لم يكن لا خجولا و لا خائفا – ببساطة ،لم يحبذها و أراد تضييع الفرصة التي انتظرها أياما كما يفعل كثير من الناس المدوخة عقولهم ، تأتي الفرصة على رجليها طالبة راغبة تنتظر منهم الأخذ و العطاء، فتستفيق أنوفهم التي زكمتها برودة الوحدة فتتعالى و تنظر عاليا إلى ما لا تصله ،وحالما تذهب الفرصة وقد اعتلتها خيبة الأمل تعود تلك الأنوف مباشرة إلى مكانها و قد بدأت تفوح منها رائحة المرض الكريهة .

و على هذه الأرض الحجرية و المخدة الزرقاء ،ما زالت تنظر تلك السجينة بإعياء إلى عماد و هو ينظر إلى السماء التي بدأت تتشح بردائها الأحمر . تنهد تنهدة عميقة تمثل كبريائه التي كانت تقطن في نفسه و قد آن اوانها ، فأراد أن يضع حدا لهاته اللعبة الصامتة ،لكنه أدرك أنه سيخسرها حتما بتصرف طفولي طائش ... فود لو يختفي تحت تلك الوسادة الوسخة التي أصبحت متعرقة و أن لا يسمع له أثر بعدها !

فبادرت تلك السجينة المناضلة بنظراتها إلى تحريك الأجواء الراكدة التي كانا يغرقان فيها ببطء فقالت : " اسمي غيثة "

و ما إن سمع صوتها حتى انقشعت تلك الكبرياء الضعيفة ،لم تصمد ولا للحظة واحدة ،اذ كانت الوحدة تثور داخله عاصفة فقال :" اسمي عماد، كيف حالك؟"

و أخيرا ،ابتسمت ، ابتسما معًا ، ثم قالت :

-" سأقول بخير ،لكن كما تعلم السجن و الأشياء ... "

-" نعم ، أعلم ، يجب أن نصبر ... لكن مدة سجني ستة اشهر و سأقضيها بسرعة ! "

-" قد تقضيها و قد تقضي عليك ... لكن لا تلقي للأمر بالا ،فأنا أمزح " غير أن وجهها لم يكن ينذر بمزاح ،لقد كانت جدية.

ثم أضافت " أنا أرى بأنك جديد هنا ، لم أرك الشتاء الفارط ،لكن لا يهم ستألف مع الوقت ... مدة عقوبتي أربع سنوات ،قضيت منها ستة اشهر"

اتكأ عماد على الجدار يفكر ،و قد رفع عينيه إلى السماء الفاقدة اللون، بدأ يحبذ الحديث معها فعلا ،فطافت برأسه فكرة سؤالها عن سبب سجنها لكنه ارتأى أنه سيفسد عليها عشيتها ، و تذكر أنها لم تسأله هو الآخر عن سبب سجنه ، لذا لا داعي إلى نبش رفات الذكريات الأليمة ،وفيما هو يغوص في تفكيره ،سألته قائلة : "هل أنت متزوج ؟ "

-" لا ،لم يكتب لي ... كنت ساذجا "

أمسكت يده، بدأت ضربات قلبه بالتسارع ،إذ إنه لم يحس فيها حبا ،بل حنانا، حنان أمه التي رآها آخر مرة في المحكمة تمسح عينيها بمنديل ورقي، و التي لم يرها بعد ذلك .. فاضطر عماد لمسك يد غيثة، ثم قالت بنبرة خافتة :

" كلنا سذج ، لقد عانيت كثيرا مع رجل أحببته ،لكنه لم يحبني ،بل تظاهر بحبه لي ، قتلني و أنا حية .. " لم تبك ،على ما يبدو أنها تتذكر ذلك يوميا مما جعل عينيها محصنتين ضد الدموع .

حدق إليها عماد ثم قال : " قصتي مشابهة لقصتك .. لكنها دخلت السجن هي الأخرى ! "

ضحكت ثم سألته : " أما زلت تكن لها محبة ؟ "

كان هذا السؤال صعبا ،إذ استيقظت الذكرى لتأخذ تفاصيلا لا معنى لها، فلم يكن عماد من العاجزين ،تفحص كل تلك التفاصيل التافهة في لمح البصر ثم لفظ روحه بأنفاس منتظمة : " نعم "

ثم قالت بديهيا و هي تشير بيديها :" لا حاجة للكذب على أنفسنا ،إن كنا نستمتع فنحن نستمتع . وإن كنا نتألم فنحن نتألم "

لم يفهم عماد كلامها ،إذ كان ذلك مجردا ! كأن أحدا يقول إن الفأر لا يبيض ، ولكنها كانت تخفي في هذه الضحكة المصطنعة التي ترسمها في نهاية كل حديث سرا مؤلما.

أومأ عماد برأسه و قد كان يتمتع بهذا المشهد البسيط ،الخفيف الذي يعالج هاذان الاثنان من وحدتهما عبر التأمل و التواصل .فاستطرد يقول : " ألا تعلمين لما أحضروك لهذا الفناء ؟"

انفرجت أساريرها ، و كأنها كانت تنتظر هذا السؤال : " نعم ، أعلم ،إن إدارة السجن في السنوات الأخيرة أصبحت تطبق هذا القرار الذي ينص على اختيار يومين من السنة يقضي فيها المساجين و السجينات أبهى لحظاتهما - فلا شك وأنك تعلم الوحدة الموحشة في السجن و الافتقار إلى التواصل ، و خاصة مع الجنس الآخر ... "

سكتت قليلا ثم قالت و لم يبد أي أثر للتهكم أو المزاح في كلامها :

-" الوحدة قاتلة، هذه ليست كذبة يلقيها المرضى نفسيا للتعبير عن شكواهم وحياتهم المضطربة ، فقد اكتشف أن معناها فعلي .

جديا، لقد كان يموت أكثر من عشر مساجين شنقا في الشهر و آخرون يجدونهم يسبحون في دمائهم في الدش ، كل هؤلاء المساجين يقضون عقوبة طويلة في السجن ، ثلاث سنوات على الأقل ! "

ثم سكتت طويلا ، و هي ما زالت واضعة رأسها على صدر عماد الذي أصبح يحس بارتفاع في درجة حرارتها ، كانت عيناها توحيان بأفكار مؤلمة تستحوذ عليها في تلك اللحظة ... بدأت تبكي دون أن ينكمش وجهها

، بكاءًا جامدا، مريرا ، ثم قالت في خفوت : " تخيل معي أن تقضي ... و أن لا يزورك أحد ! "

و كهزة أرضية ، تزلزلت عواطف عماد هو الآخر ،لم يجد شيئا مناسبا ليقوله، فقد حركت مياها ضحلة داخله فأخذت تماسيحها تطل برأسها وتنتظر ركود المياه لتخرج إلى اليابسة . ثم قال " لا أتمنى ذلك " و هو يعلم أنه لم يزره أحد من قبل، فقبل كل هذا كان يرى الوحدة مرارا ، تتقلب في شقته الفارغة صباحا و عشية محدثة حفيفا يشيب الرأس ، وأن لا أحد كان يتكرم بالطرق على بابه و إلقاء دعابة على الأقل ! هو فقط كان يريد نفسا بشرية تتنفس أمامه، قاصدة إياه .. فعوض ذلك بنفس حيوانية ، طيور الحسون التي وضعها في قفص فلم تحتمل التباين، الضيق ... فماتت . و هو الآن يعلم بأن السجن قليلا ما يطرقه أحد، وبالنسبة له سيكون ذلك مستحيلا.

فكر قليلا ثم قال : " ها أنا ذا أزورك الآن "

ابتسمت بطبيعة الحال ،بدأت تستجمع قواها و تمسح دموعها ثم تبعد برفق رأسها عن صدر عماد ، و لكن لم تكن علامات الشوق بادية عليها، فلربما تخفيها أو أن قساوة السجن و طول المدة يمحيان كل فضيلة .

دست يدها في جيبها و أخرجت شيئا غريبا ، و ربما أكثر غرابة لأنه غير متوقع ، كان بريقه يلمع في عيني عماد ، شكله، ديكوره ... وضعته في راحة يدها ثم قالت : " لقد كنت متزوجة ...، أليس جميلا ؟ "

بقي عماد زمنا يحدق تائها في خاتمها المغري، إذ على ما يبدو أنها عانت في حفظه من الحراس و من السجينات الأخريات ... أخذ عماد ذلك الخاتم و بدأ في تفحصه بإمعان و كان يردد في نفسه : " أهذا هو ميثاق الزواج؟ " ، " الزواج الذي كنت أسعى اليه؟ .. للتخلص من وحدتي ،تعاستي"

فقال لها باندهاش : " إنه لشيء جميل ان تتذكري زوجك و حتى في السجن "

-" نعم أتذكره "

و عاد يتفحص الخاتم و ينظر إلى قلب الفناء العظيم الذي كان يصدح بالأناشيد التي رغم كونها بغيضة ،بدون معنى فهي تطرب المسامع وتضفي شيئا من الحميمية في هذه الأمسية . ففهم أن زوجها ذاك بخيل، بخيل النفس لا يتكرم بخمس دقائق من وقته لقول 'مرحبا'، وأدرك أيضا أن لا عيب في تذكره رقية ، و ذكرها بكلام طيب و هذا طبيعي لأنه رأى غيثة تعاني و مازالت عازمة ،تحب آلامها، إذ لا يوجد ما هو ألذ من سعادة نابعة من عذاب موسوم ! ثم قال لها : " أنا أيضا أتذكرها ، أتذكر امرأة متزوجة أحببتها، اسمها رقية "

قالت في قلق : " لا تدع ذلك يؤثر عليك، و اعلم بأن سعادتك ليست مع التي أنت تسرعت في اختيارها .-على كل حال، حالما تخرج من هذا السجن ستتعرف على من تحبها فعلا . انظر الى نفسك، أنت ما زلت شابا وسيما " ضحكت قليلا ثم قالت : " لن تكون متزوجة ! "

-" و أنت ألا تظنين أنك ستحظين بفرصة ثانية ؟ و تتزوجي ؟

-" نعم أظن ذلك ، لدي أربع أولاد : ثلاث بنات وولد .. لا أظن ذلك " ثم بدأت نبراتها تتصاعد إلى الحنق، تنكمش في نفسها فجأة و تتقلب نواياها الحسنة : " من تظنه سيتكفل بي و بأبنائي الأربعة ؟ واحدة هناك وثلاثة هناك. و أنا أمهم هنا . سيكون أحمقا ان فعل ، و ربما الحمق قليل فيه ، سيكون بهيمة إن صح التعبير " ثم ضحكت ضحكة خبيثة، تجسدت فيها أحاسيسها المقفرة " آنذاك سيكون عالة علي ، ابني الخامس ... ألا ترى ذلك ؟ "

لم يكن عماد يريد أن يسيئ فهمها ، أو أن يزيد الطين بلة ، هو لم يفهم من كلامها إلا تصرفاتها الغريبة المفاجئة التي تصب جلها نحو الغضب و قلة الحيلة ، ثم قال لها محاولا تهدئة اعصابها :

-" أرجوك ،لا تتوتري هكذا فتندثر خلاياك العصبية و لن تجدي من يعطيك كأس ماء "

أرخت رأسها قليلا فقال لها : " أترين ؟، أنت لست كذلك ، لا تدعي تصرفات المستقبل تتحكم في طبيعتك و توجهك ، فأنت لا تعلمين أين دس رزقك .. أنا أعلم أن السجن غير من طباعك لكن ذلك لن يقود لشيء،إن مدة عقوبتك ما زالت مستمرة ; ثلاث سنوات ما زالت ستحسم من عمرك ، لا تدعيها تذهب مع الرياح ، افعلي فيها شيئا "

-" ماذا برأيك سأفعل في زنزانة ومعي سجينتان !" تقول محبطة

-" أنا لم أقصد زنزانتك، أنا أعيش ذلك ، لكن فكري مليا . هذه اللحظة التي أنت معي ،يجب أن ننسى ذكرياتنا ، فلا توجد ذكريات لا تمحى ولا آلام لا تنسى ، يعتمد ذلك على طريقة نظرتنا للحياة . وإذن، يجب أن نعيش كأسهل ما نستطيع أن نعيش، و أن لا نعقد الأمور ، فقط فكري في الأمر "

سايرته غيثة الأمر ، أرادت ارضائه ، لم ترد هي الأخرى تعكير صفوه و العبث بتفاؤله في هاته الليلة الشاعرية، فهي تعلم أنه ما زال لم يقض وقتا طويلا في السجن و أنه لم يعش شيئا كما ادعى ، و ما إن يبدأ السجن في تحطيم آماله حتى تكون ستة اشهر انقضت ! و بذلك سيكون شيئا ما فالتا و لن يكون الضرر جسيما .

نظرت إليه بدون حسد ، ابتسمت و قالت : " لا تقلق ،لن ترى كثيرا في السجن .. أنا لست متأكدة كم من التجارب ستخوض في هذا السجن لعلاج مشكلة العاطفة الاستباقية لديك ،أنت تراها نافعة لإبداء وجهة نظرك و

أنا أراها نقمة عليك . إذ إن كل سجين هنا ،كل انسان بالخارج يحمل مرضا، غضبا، حيلا يخرجها في لحظة عاطفتك ليطعن بها سهوك و ضعفك ، فتدعي في الناس ما يستدعي الاحتقار ... لا تفكر كثيرا ،لقد كنت مثلك ذات يوم. أترغب في سماع قصتي ؟ "

-" لا "

-" لا شيء ،لن تجدها مختلفة عن التي عشتها ،إنما القصص كلها تجدها متعلقة بصفات معينة : السعادة، الألم ، .. ثم تنسج وقائعها لتقع أخيرا في نفس الموضع أليمة على القلب . و أنا أدرك أنك وحيد ،وعلاج وحدتك هو الحصول على رفقة و ها أنت بصددها الآن . بصراحة... إنني لا استطيع أن أتذوق الوحدة تواجهني عاتية إلا عندما أكون مع زوجي !! و ستسألني لماذا ؟ .. و سأقول لك ،إن أشياءه، ذكرياته.. كلها تترتب بالنسبة إلي في المستوى الغائم : نقيض السعادة . هذه الأخيرة، كنت أعيشها قليلا مع أبنائي على الأرجح . فاستعملت عاطفتي، فرطت ... أصبحت هنا "

لم يلق عماد بالا لذلك لأنه رأى أنها تحب زوجها حبا جنونيا و هو في سهو تام عنها. وهذا ما يحدث، الأشخاص الذين نحبهم لا يرونا. ثم قال لها :" أنا لست عاطفيا ، ولم أكن ذلك الشخص أبدا"

سخرت منه ، و قالت : " إن ذلك الإنسان العاطفي هو الذي قادك إلى هنا "

-" أجل ، ربما "

و خلال كلامها المتناقض، لاحظ عماد أن غيثة تحاول جذبه إلى عالمها اليائس الذي حاولت مرارا الخروج منه، فتطلعت برأسها فرأت أن النفق ما زال طويلا، ثلاث سنوات في انتظارها ! مع ذلك ،هذا لن يبدل شيئا، فحالما تخرج ستجد أمامها نفقا أوسع من الذي ركضت فيه وحيدة في

الظلام. لكن لا أحد سيلومها، إذ ان عواطفها، أحاسيسها ستتبدل جميعها، و ليس بإمكانها فعل شيء .

الآن، فعلى عماد أن يكون سندها، سيد لحظتها ،أن يجعلها تتذكره لأن يوم الأربعاء لم يبرمج لإطلاق الأحزان و تركها تتصارع مع بعضها ، بل في أخذ لحظة جميلة، تجعل من الوحدة شيئا زائفا و تنفض الغبار عن ذكريات جميلة عيشت- للأسف لم توضع في ألبوم صور لتصفحها وقت الحاجة ،لكنها في المقابل اندست وراء جدار بنته التعاسة ، و لكن في كل مرة ، في كل أربعاء سيتم هدمه شيئا فشيئا ،ومنعه من التعالي.

-" هل لك والدان ،أهما على قيد الحياة؟" قال عماد

-" نعم، لقد كانا يأتيان عندي مرارا عندما كنت مع زوجي- على العموم، كانت علاقتنا طيبة ،لكن لماذا "

-" هل زاراك يوما، بعد دخولك السجن "

-" قطعا لا، لقد أصبحا يعتبرانني خائنة ... عار على العائلة" ثم بدأ الذعر يسكنها ، وأصبح كلامها فوق قلبها ، تجهد نفسها فخنعت رأسها.

كان عماد يرى معاناتها كفقاعات الزيت فوق الماء مقارنة بخاصته، حاول أن يحرر شفتيه من قبضة الصمت التي ألجمته جاهدا ،و يريد أن يبين لها بأنه ليس عاطفيا و إنما متحاب مع نفسه . أرغم نفسه على اتخاذ وضعية المبتسم الحزين ، نظر إليها في لهفة ثم قال :

-" أنا لا أعلم إن كان والداي يعتبرانني خائنا، ولا أظن ذلك. عندما كنت في شقتي ، لم يزرني أحدهم و لو مرة : نجحت، عملت، فرحت، ازدهرت، مرضت ،نمت، توحدت... و لم أرهما يوما على عتبة بابي التي أتنهد عليها واقفا كل صباح و آمل أن تميل الموازين لصالحي قليلا، قليلا فقط... " سكت قليلا ثم أخذ يحك عينيه اللتان تحرقانه حرقا لاذعا ;

هو لم يبكي ،و إنما كان كإشارة على ان تلك العينان رأتا كثيرا ،و لم تريا كثيرا. إذ إن الوضاع تنتقل من السيء إلى الأسوء دون تشاور. يا لها من سادية !

أضاف عماد بعد أن فرغ من نوبة الحك : " آخر مرة رأيتهما كانا في المحكمة، يجلسان في الصفوف الأولى بجانب بعضهما ،لم يتكلما ... كنت أزورهما ،فهما ما تبقى من عائلتي المنقرضة نسبيا.

وأنا لا اعلم لما حكمت علي بالعاطفة ،عاطفة لم أتذوقها، بل دفعت ثمنها هباءًا! "

بدأ الليل يسدل ستاره شيئا فشيئا، أحست غيثة بأن الهواء الليلي البارد، الناعم الذي يلامس الأطراف، بحنان. بدأ يتقلب تدريجيا، إذ بدأت رياح الأسى تعكره و تضفي لمستها الخاصة عليه – في الواقع، لا إنسان في السجن بدون مشاكل ،مشاكل حقيقية.

أرجعت غيثة لوعة ألامها الى الوراء ،بين أحضانها .لأنها كانت تظن أنها هي المرأة، أو ربما الإنسان الوحيد الأكثر عذابا على وجه الأرض و الأقل حظا ،و لكن هل عماد أوفر حظا منها ؟ قطعا لا، هو فقط يساير حظه المتعثر بحذافيره، ليتقلقل بعض الشيء، فأصبح في ستة اشهر حبسا نافذا يقضيها في أبشع الأماكن بوجه مبتسم حزين.

تقول غيثة -" أعتذر على التسرع في الحكم عليك .لنذهب أبعد من هذا، فنحن في غنى عن مسببات الحزن، فظلالها مثبتة بظلالنا السوداء،في كل ساعة و في كل دقيقة. لكن لقد رأيت أنك واثق من نفسك ... ففي سني هذا ،أبنائي ، زواجي، عائلتي التي كرهتني و تظن أنني سأعيش حياة جديدة، بيضاء صافية و أنا لا أعلم من أين أقدم و لا أأخر... بصراحة، أنا أريد رجلا... "

يا لهذا التلخيص الجريء، لم يكن عماد يريد إثارة حفيظتها إلى هذا الحد، هو فقط أراد التفويج عنها حتى إن القضية مفروغ منها . فقد أراد إعادة الأمل لها بدافع الإنسانية فقط التي ما زالت بداخله، تحثه على احترام القيم و التمثل لها ، وأيضا ،لم يكن للثقة دخل في إعطائها آمالا بالزواج مرة أخرى.

هو لا يثق حتى في نفسه، فلو أنها نظرت بتمعن الى حياته، مشاكله، وشخصيته لوجدت في ذلك خللا عظيما ; أبراجا من الأسى و الحزن تقف منتصبة، تمنع التفاؤل و الحب من دخول حياته ، و بذلك سيكون من المستحيل أن تقيم اعتبارا لما يتفوه به هذا المغلوب على أمره، الذي ينتظر بطريقة خرافية أن ينبثق وميضه، فيملأ حياته إشعاعا، لكن فحتى الغريق يمكنه البقبقة في الماء ، فقد تذكر عماد لتوه قصة سمعها ذات مرة عندما كان صغيرا:

إذ إن أحد الشبان هاجر الى الديار الإيطالية، لم يجد عملا ،فضاقت به الأحوال .أصبح يتوسد الرصيف ،و أرجل المارة تزعج أذنيه و تنخر مخه بدقاتها المتوالية. لكن ،لكل مغلوب دعوة ،إلا ان دعوته استجيبت ; اشتغل عند عجوز إيطالية ،توفي زوجها و انتقل ابنها الوحيد الى الإشتغال في مدينة 'تورينو'، فأصبحت وحيدة في منزلها، حبيسة الصور الحائطية التي تحمل حياة جيل بأكمله، تدخلها دوما في دوامة من الكآبة الخرساء. وجدت ذلك الشاب ،اشتغل في حديقتها .

تطور الوقت ،أصبح يلج المنزل كابن من أبنائها لا حرج عليه.

لم يكن يزورها ابنها ،قرة عينها إلا نادرا، فذاقت ذرعا بالعذاب الذي ينهش عظامها الوهنة، و السعادة التي هجرتها منذ رحيل زوجها : الفلاح الإيطالي البسيط، الذي أصبحت فيما بعد ،تخرج ملابسه لتعيد طيها فتتذكر شبابها، ولكن ما كان أحد يراها شابة ، الكل يراها عجوزا و صل التراب

عنقها ، إلا واحدا ; إنه الشاب البستاني ،تزوجها فعاش معها شهورا في سعادة عذبة قبل أن توضع حزم الورد على جثثها !

و كذلك ،التفت عماد نحو غيثة و قد اتسعت حدقات عينيه فرحا :

-" أأنت ثرية ؟ "

-" نوعا ما "

-" سترين ! " ثم قص عليها تلك القصة التي تحدث مرة في المليون ،فما كاد أن يكملها حتى أرخت جفونها و عانقته بحرارة . يربت على ظهرها برفق ،بتردد، غير مصدق ،فتبكي بصمت ،لأنها ترى أيام شبابها تدمر افكارها ،و عادت ترى من بين سيوف الغادرين أبناءها، وحيدون، جائعون، ينتقلون من دار إلى أخرى تائهين، ووالدهم هو من يحرص على انتقالهم، إذ يوصلهم بسيارته،ثم يبتعد بعيدا، إلى مشاغله اليومية وحبه الجديد، و شهقت شهقة كبيرة ثم قالت :

-" شكرا لك ،لقد غطيت عيبي ، أنت تستحق من يحبك فعلا "

فقال لها بخجل : " لن أقول لا إن وجدتها "

تمسح دموعها ،بعينين مغمضتين و قد اعتلتها ابتسامة عذبة. تسدل يديها، ثم تندفع متحمسة :

-" هل تركت لك رقية شيئا تتذكرها به "

-" لا،لا شيء لم يتسنى لها الوقت لفعل ذلك "

-" إذا خذ خاتمي ،فلتتذكرني به ! "

فقال لها في اضطراب ، رأى أن سبعة اشهر انقضت و هي تقلب خاتمها يوما بعد يوم ،تنتظر زوجها الذي لن يأتي أبدا ،معلنة تيارا من التوقع

والشوق وها هي الآن ، ستتبدل حتما ،لأنها وثقت في كلامه الذي لم يتوخى منه إلا فتح محادثة و الانزياح قليلا عن طقس التعاسة.

-" أنا آسف ،لم أقصد ان يكون كلامي قويا لهذه الدرجة " قال عماد

لم يرد أن يقول لها أنه مازالت أمامك ثلاث سنوات ستقضيها بدون رفيق أو حميم ، وأنه بعد أيام ستغرقين في هاوية صامتة لا خروج لك منها ،إذ ستكتشفين أنك في حاجة ماسة إلى صبر خرافي للعيش بدون أن تنطحي رأسك مع جدار الزنزانة الخشن فتسقطي مرة و الى الأبد. - هذا طبيعي لأن ذكرى زوجها و أبنائها سترفسها رفسا عميقا .

فقال لها : " أنت لا تحتاجين للتغيير، التغيير في السجن سيغدو لا شيء. فقط اصبري ،فمهما طالت الأيام ، ودمك يسري في عروق والديك و أبنائك فسيهمون لزيارتك دون شعور ... تفضلي خاتمك، فقط من أجل أبنائك، لا من أجل زوجك الحقير" قالها هكذا ،و هو لا يعلم من الحقير فعلا، أهي أم زوجها؟ فعلى ما يبدو ،دون أدنى تفكير ،أربع سنوات حبسا لن تأتي من فراغ . لكن إن غرق في التفكير هكذا فلن يكلمها أصلا.

ابتسمت ابتسامة خفيفة ،أثرية كابتسامة شرطي المرور الزائفة حين يلقي تحيته على السائق المذعور ثم قالت :

-" لا تخف ، لقد تزوجت مرتين" ثم دست يدها في جيبها للمرة الثانية لتخرج خاتما ذهبيا ،مرصع بحجرة ماس صغيرة، يتلألأ ضوئها في عيني عماد.

فها هي تباشر ،تترك عماد في حالة من الهوس، فقد ظن المسكين بالفعل أنها ضعيفة، وحيدة و تحتاج من يرعاها .لكنها أبانت على النقيض بكل دقة و تفان، لا تترك مجالا للشك.

طبيعيا ،نتبع ألغاز الآخرين، مهما كانوا غرباء عنا ،نتناسى ذواتنا ،نسقط في حفرة الجنون التي قادونا إليها،و خدروا عروقنا بكلامهم المثير للشفقة النابع من قلوبهم الجوفاء التي يهدد الصمت نبضها في كل مرة. وفي الأخير نقنع أنفسنا بأنهم يكنون لنا محبة خاصة، خالصة و التي لولاها لما أصبحنا هكذا...

لم يتكلم عماد كثيرا -" نعم ، شكرا لك "

ثم ودعته بابتسامتها الساخرة و هي تحاول تقليد الحمام في مشيتها .يحيد عماد بنظره إلى الفناء ،وهو يتمتم في نفسه بخبث :

-" سحقا لك ، اغرقي في هاويتك بصمت ... أيها الحمقاء "

كانت حفنة كاملة من تلك الزجاجات الصغيرة الخضراء و الكريهة، الفارغة غالبا متناثرة على البلاط الحجري بغزارة. المساجين مستلقون على ظهورهم و بطونهم يفردون شعر سجيناتهم غالبا !

كان عصام يغط في نوم عميق ، فاتح فاه كالعادة، و يضفي شخيره نغمة من تلك النغمات البغيضة . تذكر عماد تلك الجماعة الملتحية التي كان قد جلس بجانبها ، أخذ يشيح بنظراته بين وجوه المساجين الحمراء وجناتهم و هو يهمس :

-" إن عبدو ذاك ملعون !"

و بينما هو على هذه الحال ،حتى وجدهم بجانبه على بعد بضع مترات. لقد وفروا عليه عناء البحث ! كان أحدهم يضع طاقيته البيضاء على رأس أحد السجينات الملتزمات ، ويضحك ملئ شدقيه. كانا يبدوان كعروسين محتشمين، أو يتصنعا الحشمة ، يتأملان وجه بعضهما في ليلة عرسهما... أما الآخرون، فكانوا لا يختلفون عن ذلك ، كأنهم يدرسون نهجهم و طريقتهم في المرح هي الأخرى، وويل لمن يخالفها !

و لكن دائما توجد استثناءات ، من قال غير ذلك ؟لقد كان بعضهم يشرب من تلك القناني اللعينة الصغيرة بوجه عبوس . يبدو أن تلك هي المرة الأولى له ،يعبر فيها عن نشاطه !

وما إن أصبحت السماء الشاسعة معتمة اللون، مكللة بنجومها الصغيرة و الطقس بارد يلفح الوجوه بهواء صحراوي ليلي حتى دقت الساعة الواحدة و النصف صباحا، أخذ الحراس يجرون أجسادهم المخمورة ببطء و هم يتساقطون مع كل خطوة يخطونها ،كأنهم يحملون على ظهورهم أكياسا من الملح ! يتمتمون بكلام أجهري ،أجش، وقد تداعت ركائزهم.

فجأة ،يصدح الكبير ،كبيرهم، آمر السجن ،الذي دخل المشهد لتوه بدوره القصير النافذ :

-" لقد انتهت الحفلة ، فلتبعدوا مؤخ... عن فنائي "

نهض الحراس يتمايلون في خطاهم ، و كلام آمر السجن يحرك أرجلهم و أفواههم بقوة ، رغما عنهم. قادوا المساجين الذين بادلوهم نفس الشعور و بحرارة إلى زنزاناتهم ; أما عبدو ، فهو يعلم المسؤولية الملقاة على عاتقه ،مسؤولية جيش بأكمله، يجب إعادته إلى مقره: الزنزانة الشعواء.

فيما كان المساجين يسقطون تارة و ينهضون تارة أخرى ، يلوحون بأيديهم و بأصواتهم الكريهة في الممر المظلم الطويل ، وضعت يد رفيقة على كتف عماد ، وجذبته الى الوراء .

-" مرحى ، لقد استمتعت " قال له رؤوف بفرح.

لم يتفاجأ عماد لأنه سمع ذلك الصوت مرارا ، ثم بادله نفس الشعور :

-" نعم، قليلا ... "

-" لا تخشى شيئا، فأنا أيضا واجهت ما واجهته قبل دخولي السجن وحتى بعد دخولي ! و هذا حال السجينات خاصة ، لنا و لهم الفضل في إسعاد اللحظة "

لم يفهم عماد شيئا و تمتم قائلا : " نعم، بالفعل "

وضع رؤوف سبابته عل فمه و هو يخمن ... ثم قال :

-" أو ترى ،لقد عوضتك ! "

-" كيف؟ " قال عماد باندهاش

-" أووه، لا تقل لي أنك نسيت ،تذكر اليوم الأول لك في السجن، إذ كنا على طاولة الطعام .لقد كنت يائسا؟ "

-" نعم ، أتذكره ،لكن المشكل ليس هنا ،بل في كيف عوضتني ؟ "

- " أجل، الآن أنت تفهم ،السجينات هنا طليقات اللسان .بصراحة، الوحدة القاهرة هي التي جعلتهن هكذا ،يتكلمن بسخاء، ومع أي غريب ! و لربما قد سمعت من إحداهن أن يوم الأربعاء ليس مخصصا لكل المساجين. "

-" نعم، سمعت شيئا بخصوص ثلاث سنوات أو ربما أربع سنوات... "

-" إذا هكذا ،فأنت تعلم "

-" رجاءً أخبرني ، لا أعلم شيئا " يقول عماد بلهفة بعد أن استدرجه رؤوف إلى وسط الحديث بحذاقة.

-" أووه ... ذلك شيء لا يستحق الذكر، ستتعود على الأمر، مازال أمامك الأربعاء القادم في فصل الشتاء ! "

-" إنك تتكلم بغموض يا رؤوف "

بدأ يضحك رؤوف لأنه يقدر المعلومة غاليا ،ليس هذه المعلومة بالضبط، وإما جميع المعلومات والمعارف على حد سواء ،ويجب أن يجعل من الحديث مشوقا.

-" سأخبرك، إن يوم الأربعاء مسموح قضائه للمساجين الذين تتجاوز عقوبتهم تلاث سنوات، و ذلك بهدف خلق بعض المتعة، و كسر شيء من ضوضاء الوحدة و التعاسة التي تصبح أكثر من المألوف ;يؤدي كثير ثمنها عمره !

إذ لا مجال لخطوة نادمة الى الوراء، و أنا أرى هذه الفكرة سديدة ". سكت رؤوف قليلا ثم قال :

-" أتقضي ستة أشهر ؟ "

قال عماد بشوق : " نعم ،نعم" ثم بدأ يبدي إعجابه " لكن يوم الأربعاء لا ينطبق علي ،فلربما خطئوا في حساباتهم، بيني و بينك ،ألا تدري شيئا؟ "

أغمض رؤوف عينيه ضاحكا ثم قال :

-" لقد عوضتك بالفعل ،لا تسأل ! "

الفصل العاشر

في الصباح الباكر ،كانوا صامتين يرتفع همسهم شيئا فشيئا وسط الصمت العتيق ومعه صوت حشرات يتفاقم في الأماكن الأكثر نداوة في الأركان وتحت الأغطية حيث كان الظلام سادلا رواقه. دقت الخامسة في الساعة اليدوية لرؤوف. كانت حواسهم آخدة في التنبه مركزة على شيء واحد : الطاولة المشؤومة. لم يعد عماد يكن لها اكتراثا، إذ أصبحت فردا يعول عليه تضفي بعض الأنسة بأرجلها الثلاثة القصيرة و سطحها

المزخرف بإبداعات المساجين الرديئة، لكن ذلك فن إن استحسنا النظر، فهو نابع عن إرادة و حزن عميق يجسد مكابدة الأوضاع القاسية في السجون والاتصال معها يعد مرهفا أقل شيء يثير العاطفة ويحركها.

كانوا يلعبون الورق، لا يراهنون، فقط للتسلية .استيقظوا باكرا وسينامون باكرا. كان رؤوف يتحدث بطيب خاطر و يتأثر بسهولة، كثير الثقافة. على أنه كانت لرؤوف علاقات مع الحراس لكنها ضيقة فقط لمن قصدوه قبل دخوله السجن . أما عصام فكان يحاول جاهدا أن يعيش في جمود مستمر بعيدا عن الاحتكاك بالمساجين . آنذاك أصبح وجها لوجه مع الوحدة التي لطالما تمناها... في الواقع ،لم يتمنى شيئا هو فقط أراد التخلص من عبث الواقع ومن درن ما صنعته يداه المختلتين. وكذلك صمم عصام على أن يظل يعاقب نفسه بالسكوت حتى يموت أو تنهار جدران الزنزانة 13 فتقتله، ولكن قبل سنتين و نصف تعرف على رؤوف الذي حاول بطريقة أو بأخرى أن يتواصل معه، و يذهب بروحه من الذئب المتوحد الى ابن عرس المتوحد . فأخذ يهتم به و يبدي فرحا كبيرا ،و كان عصام دوما ما ينظر إليه بشيء من الدهشة، إذ غالبا ما كان منغلقا على ذاته لا يحبذ نبش الذكريات الأليمة المطوية جدا.

في اللعب كان رؤوف دائما ما يربح. هل كان ذلك نتيجة صدفة أو مخطط مدروس ؟ عماد لا يدري ! لأنه ربح مرة أو مرتين من أصل عشرين مرة ،أما عصام فكانت مكتوبة له الخسارة .و لوهلة ظن عماد أن عصام يتواطأ مع رؤوف و يكشف له اوراقه خلسة –فلامجال للشك، إذ الظروف السيئة للإضاءة تساعد على ذلك، فقد كانت شمعة واحدة مثبتة وسط الطاولة يتلاعب نورها مع كل ورقة حطت أو أي عين رمشت !

وقد كان عماد وقتها مدهوشا حقا، كان يرى الأوراق التي تحط على الطاولة لكن خاصته لم يكن يراها. كان ذلك بالنسبة له خرافة ! الأيادي مصبوغة بظلمة السجن الدامسة تقبض الأوراق بحذر، تميل رويدا رويدا

إلى الأسفل لالتقاط بعض الضوء المنعكس لتلك الشمعة البالية ثم ترمي بالورقة على الطاولة..

يا للتعاسة! إن هذا لم يعد يروق لعماد وقد أصبح يظن بأن تلك الطاولة التي تصالح معها ملعونة ،تكشف الحقيقة، تكشف الأوراق التي تحط عليها فتتسبب في خسارته .يلعب و يفكر، يفكر مليا، يريد وضع حد لتلك الطاولة. لم يعد يشاء اللعب فوقها لكنه لم يقدر على قولها لزملائه، إذ إن سؤال ((لماذا))سيكون طبيعيا و هو لا يملك إلا الخرافات في رأسه و أيضا لا يريد إشعال حرب مع عصام الذي لن يتردد في دفنه تحتها .

جالت برأسه فكرة السرير، أن يلعب فوقه، لكن لا شيء يمنع تلك الشمعة من السقوط على ذلك السرير الحقير النتن وإضرام النار فيه، فيشب الحريق المتعطش في تلك الاغطية الكثيفة فيموتوا ميتة شنعاء ،مفحمين!

قرر أن يلعب فوق بلاط الزنزانة العاري، أشاح بنظره فرأى أن ذلك القفص لا يملك مكانا إضافيا لوضع تلك الطاولة حتى يتسنى له اللعب. أيضا كان لا يملك إلا أن يقول إن" تلك الطاولة عالية بعض الشيء تؤلم عنقي إذ اضطر ..." ولكن سيجيبه رؤوف حتما "لا إنها قصيرة ستؤلم ظهرك "وبالتالي لا يمكنه التخلص منها.

أصبح يفيض الآن بالمشاعر السيئة وكان يتوق لأن يسحقها تحت قدمه سحقا. أحس رفاقه بشيء يكدر صفوه لأن لعبه لم يعد متوازنا، أصبح يقدم نفسه للخسارة هباءًا .توجهت عليه الأنظار و قال له رؤوف "ما بالك، لقد أصبح عصام يهزمك !"

- "لا ،لا شيء، فقط أريد النوم ثانية."

-بالله عليك، لا تكن متكاسلا، ستنام و ستنام حتى يتخدر مخك و ستعود رلى وحدتك مرارا ومرارا ،أما الآن فشاركنا اللحظة."

استقبل عماد كلام صديقه بكل دلائل الاحترام ثم واصل اللعب...هزمه عصام ثانية : توقف اللعب، أراد رؤوف جمع الورق ، قاطعه عماد وهو وجل من الخجل:

- "اقسم بالله أنني لعبت بجد"

أعاد رؤوف الورق على الطاولة ،باشروا اللعب مرة أخرى وكان عماد مصعوقا آنذاك لا يعرف ماذا يفعل. يلعب بعنف، يحاول التحرر من لمسات الطاولة المسممة وقلبه يطفح بالغضب و المرارة، لقد كان اجتماعا عائليا مضطربا حينها. وكان يقول في نفسه "لا بأس سيمر كل شيء على ما يرام"

بغتة جرى ما جرى. خسر رؤوف :"يا لهذا الحظ إنها المرة الاولى يا سادة " قال رؤوف .

ضحك الجميع وهم يهنؤونه على خسارته، لكن عماد مازال متأثرا قليلا كان يشعر أن الأمر لم ينتهي بعد، وأن شيئا غريبا سيحدث وأنه سيخسر أمام عصام الذي لا يعرف حتى مسك الأوراق في يده .

شد عماد رأسه، إحساس غريب يعصر قلبه كسكين حافي، يتنهد و يتنهد : "الأمر لم ينتهي بعد، أقسم بالله أن الأمر لم ينتهي بعد "يلوح بأوراقه في جميع أنحاء الزنزانة خائفا مضطربا.

و في تلك اللحظة عينها ،كانت رزمة المفاتيح تصدر صداها على قضبان الزنزانة 13، لقد كان السجان أمام باب الزنزانة، فقد حان وقت النزهة الصباحية على الساعة السادسة صباحا.

رفض عماد الخروج إذ ظل ماسكا ورقتين بيديه و يحدق فيهما، و يهلوس بصوت واهن "سنكمل حالما تعودوا ،سنكمل "

حتى عصام بدا عليه بعض النشاط و خرج يستمتع بصباحه، ولكن عماد كان يخيل أن هناك من يسير خلفه، يشده بسلسلة وهمية يجره بها إلى الوراء ،و انتابته رغبة جامحة في الصراخ ،ولكن بما أنه كان مجبرا على أن يفكر في سبب يخلصه من تلك الطاولة دون سحقها و رميها قطعا من بين قضبان الزنزانة فإنه لم يجرؤ ..

كان ساعتها يغوص في المشاعر السيئة حتى الركب. بصراحة، لقد ندم، كان يود لو أنه خرج معهم فيكملوا اللعب في الساحة، لكن ثقل اضطراباته النفسية و الحالة الفكرية المكتظة بالاشتباكات كانت بعيدة كل البعد على أن يتخذ قرارات صائبة. وإنه أدرك أيضا أنه حتى لو خرج معهم فسيعودون حتما إلى الزنزانة و يلعبون الورق فوق الطاولة.

حاول أن يقاوم هذا الاجتياح ،و بقدر ما كان الوقت يمر و هو لا يملك ساعة حتى، فقد يدخل رفاقه في أي لحظة. و هكذا كان الخوف يأخذ به و يأرجحه. كان يريد أن يعمل شيئا لنسيان معاناته ; أن يسحق الطاولة و يقول لهم كانت حادثة ،و لكنهم حالما يدخلون سيقولون له "منذ 1936 و هذه الطاولة سليمة، صامدة حتى أتيت أنت، لقد كنت نذير شؤم عليها" و بالتالي لن يكلمه أحد فيهم و سيغطس في وحدته مرارا حتى يختنق بشراهة، وربما سيحس نفسه كضحية أمام عصام الذي سبق له وأن احتك معه، فيتقدم إليه كغيوم تتدافع بين يدي ريح عاصفة ،ثم قفزات سريعة تبطش به !

عاد إلى سريره يداه تحت رأسه ،يقلب بين أفكاره أنه بحاجة الى دهاء عظيم لنسيان ما ألم به .راح يبحث و يبحث "غيثة تلك التي لن تكون لها فرصة في الزواج بل حتى في السعادة..."-"والداي الأبلهين اللذين صدقا أن أخي مات في البحر و لم يهما إلى البحث عن جثته و مسحا ذلك العناء في القدر ،وأن ليس في استطاعتهما فعل شيء..." "لا، لا ذلك من الماضي لقد نسيا تلك الذكرى ونسياني معها"

كانت الذكريات تتضخم و تتجسد . وعلى العموم وفق لذلك الدهاء.

آه، شيء آخر ذكره بالطاولة ،شيء كارثي احتل الدقائق الاخيرة لعرض محتوياته. جعل ذلك عماد يتصبب عرقا ،يتنهد ويشهق شهقا كبيرا .لم يعرف ماذا يقول لرؤوف و عماد إن دخلا. لقد كان آنذاك كرقبة تحت المقصلة ،فكل توقعاته باءت بالتحقق بطريقة غريبة ،و هذا هو القدر الذي ذكره قبل قليل عن والديه يأتي بغتة يضفي لمسته قويا ،جامحا لا مجال للنقاش، فما له الآن إلا أن يؤمن فعلا بأن أخاه مات ميتة قاسية في المحيط الأطلسي وأن بقاياه العظمية طفت على الماء و انتهى بها المطاف في إحدى الجزر المنسية.

أخرج طعاما من تحت سريره ،و ها هي مؤدبة رقيقة متواضعة فيها أرز وبطاطس مسلوقة قد خلفها رؤوف...لكنه ليس في حاجة باتة إليه فقد حاول أن يأكل، ولكن اللقمة اتخذت الأرض بدلا من فمه ! لقد كان يرتجف.

و في هده الحقيقة المباغتة التي تنتقل فيها أصوات الإرتطامات مع بلاط الزنزانة تحرر عماد من قيوده يلتمع وجهه ملتهبا ...ثم يضحك.

"لقد وقع السرير العلوي على الطاولة : سرير عصام ! " قالها وهو يضحك ضحكا فوضويا ثم قال مستأنفا "نعم إنها الطاولة، لقد سحقت سحقا تاما ،سحقها صاحبها، عاشقها " ثم يتحقق ثانية وسط الغبار "يا إلهي لقد انقلب السحر على الساحر" .آنذاك، أحس بالحظ السري الذي يقف له متربعا على عرشه في السجن.

كان عماد راقدا مستيقظا ينتظر. بعد دقائق، ربما نصف ساعة دخل الرفيقان. استيقظ عماد و هو يهنئ عصام "حفظك الله يا أخي" كان عصام المدهوش يزداد دهشة "أين سريري أين طاولتي". رفع رأسه إلى الأعلى ،فأدرك أن سريره المهترئ قد اقتلع من مكانه وسقط في وسط الزنزانة،

بل على الطاولة و حطمها.. وما هي إلا ثواني حتى بدأ يضحك و جيش من الدمع ينطلق من عينيه و يعانق عماد و يشكره "باركك الله باركك الله"

فالمسكين رغم ظروفه المتجردة ،وحدته الصامتة، أدرك أن تلك موت، أي أن رأسه كان سيكلل بسطح الطاولة الدائري !

كانت تلك الساعة العاشرة حين دخل عصام و رؤوف الزنزانة ــو لاشك في أن عصام الآن يتقطر فرحا ،فهو لم يغادر زنزانته منذ أكثر من خمسة أسابيع !باستثناء يوم الأربعاء المنصرم . و لكن دائما ما يأتي وقت ينتصر فيه التردد وحب الاستطلاع على الوحدة فيبزغ النهار آنذاك مشرقا لا غيمة تالفة فيه. فكان الجميع يحس صوته متغيرا ;ديناميكيته الغريبة، الحيوية ...و ضحكاته البسيطة المتألقة.

بعد قليل، مر أمام الزنزانة 13 سجان ،ألقى نظرة عابرة ثم وقف يستقصي عماد ويتكلم بصوت سلطوي :

-"هل رقصت القرود على ذلك السرير ،من أنتم بحق..."

أجابه عماد بلطف من وراء القضبان و هو يتفحص شفتيه المعقوفتين :لقد كانتا منتفختين من الأعلى. على ما يبدو أنه تعرض للكمة ساحقة من أحد السجناء المتمردين.

-"انظر بنفسك و سترى ...إن أعمدة السرير صدئت بفعل الرطوبة غالبا، وعلى ما يبدو أنها لم تستطيع التحمل أكثر فسقط جزئه الأعلى بفعل الثقل الذي يطبقه عليه. و الحمد لله لم يصب أحد" وكان عماد فخورا معتزا بالسرير الصدئ الذي سحق مخاوفه.

سكت السجان البشع وجهه و أخذ يلحس شفتيه المتورمتين بحنق ثم قال : "لا، السرير لن يسقط أبدا ،لماذا لم يسقط في الزنزانات الأخرى " ثم أخذ يشير بيده "بل أنتم أيها الهمجيون...."

بغتة اخترق صوت مجهول المحادثة يكذب السجان قائلا :

"أيها السادي البغيض، لقد سقط السرير في الزنزانة 16 الثلاثاء الماضي... بل إنه اقتلع من جذره ...ألم ترى ذلك؟ أم أنهم لم يخبروك بذلك ؟ ههه" .

لقد كان ذلك صوت سجين، لم يكن متواطئا مع أحد لكنه أراد فقط أن يقاطع الحديث ،و أن يثير غضب السجان. إذ أنه نجح في ذلك بسهولة !.بدأ السجان بإلقاء كلماته الغبية التائهة التي تخرج من فمه كمدفع قديم يطلق بلا مبالاة .

تعالت ضحكات المساجين الخبيثة ،ترثي و تمدح هذا السجان العجوز الذي فجأة أراد أن يثبت سلطته بطريقة بدائية، غوغائية وسط جمهرة من الذئاب المتوحدين.

و العجيب في الأمر أنه كان يسب نفسه، إذ كان يقول :

-"أيها الملاعين ،انظروا حولكم، انظروا إلى قذارتكم ،كلنا في سجن، فقط أنتم وراء القضبان و أنا خارجها"

ثم صاح أحد المساجين الثوريين :

-" السجن كله قذارة ... إذن، أنت مشارك في قذارتنا ..." وكان صياح المساجين يعلو شيئا فشيئا ثم استأنف الثائر قائلا :

"أنت... أنت ..." و بدأت الأصوات بالخفوت شيئا فشيئا لكي تسمع الكلمات بوضوح و تطرق أذني السجان المزغبتين بدقة و تفان، و تترك في نفسه ألاعيب الكلمة و قوتها .

-"أنت لست خارج القضبان كما تدعي ... أنا أمضيت ثمان سنوات هنا، و أعلم جيدا أنك اشتغلت أكثر من هذه المدة في هذا السجن البغيض بعيدا عن أسرتك التي أظن أنك لا تملكها من الأساس، تشتغل أكثر من ستة عشر ساعة في النهار، تراقب قذارتنا و تتلقى لكماتنا "و أشار إلى شفتيه ثم أضاف قائلا بسخرية :

-"نحن نمضي مدة عقوبتنا ست سنوات، ثمان سنوات ...عشرين سنة ونخرج. أما أنت فحياتك كلها، لقد حكموا عليك بالسجن المؤبد رغما عنك ! بدون تهمة، بدون دليل، بدون أي أدنى شيء يذكر. أيها الوضيع" ثم انفجر السجن ضاحكا بقهقهات مدوية تهز السرائر المهترئة و تصدح في ذلك الممر الطويل المظلم تدفع السجان خارجا ;وضيعا ذليلا ...

و يا ليت المصيبة تنتهي هنا، فقد كان ذلك مثل نبش موقد للنار .إذ سرعان ما تهوي الريح بالرماد فيظهر الجمر ملتهبا حارقا .

إن ذلك الثائر يفهم جيدا معنى الإنتماء، الإنتماء إلى مجتمع تسوده السلطة والكراهية ،و لكنه شيئا ما أحب نبش الجمر الآن بأصابعه العارية، لأنه قلب ذلك الموقد مرارًا و مرارًا حتى استهلكت عصاه، و الآن هو في خضم تجربة جديدة، أكثر فعالية و أكثر انطباعية، لا مجال للتراجع، لكن لا بأس ، فمن التجارب يتعلم الإنسان و قد يتعلم فلا يجد الوقت لتطبيق ما قد تعلمه إذ سيكون غير موجودا أو يهوي في الجنون !

اتضح كل شيء، كان يتقدم في ذلك الممر سرب من الحراس ببزاتهم الرسمية المزركشة و مفاتيحهم الكثيرة التي تبث في النفس الاشمئزاز تارة و الإنفتاح على العالم تارة أخرى : إذ كان بعض السجناء الحالمين

يتخيلون باب الزنزانة الصغير يفتح، ثم يدلفون الى الممر، ثم إلى الفضاءات و الأروقة مرورا بأكثر من خمسة أبواب أخرى، ثم يدلفون الى الساحة الكبيرة يسلمون على آمر السجن القابع في الأعلى بأعينهم، لكن للأسف، لن يكون أمام نافذته الزجاجية العريضة ويداه وراء ظهره، و إنما سيكون على كرسيه الجلدي المريح ،يتأرجح و هو يمسك سماعة الهاتف بيمناه .

ولكن لحظة عجيبة سينتفض لها صدرهم ،إذ يلوح بسيجاره في الهواء كعادته فتقع أعينهم على ذلك المشهد وليد الصدفة، فيحسون بالانشراح. بعد ذلك، يصلون البوابة العملاقة يفتح منها باب صغير يشبه باب الزنزانة في كثير من الأشياء، فيظنون بذلك أنه خدعة ،وقد يذهب أحدهم أبعد من ذلك، إذ سيظن مليا أنه سيتم وضعه في سيارات مغبرة، مصفحة، مظلمة و سيكون معصوب العينين، ثم بعد ذلك ،على طريق طويلة لا يعرف منها إلا أنها وعرة . ..يمر وقت ليس بطويل، يجلس على كرسي ، يفتح عينيه أحد الغرباء، فيجد نفسه متصلا بأسلاك . فيقول له الغريب :

-"قل كلمتك الأخيرة "

-"لا ،لا شيء، أحب الحياة"

-"نعم سأحرص على قولها لعائلتك" وهو على علم اليقين بأنه لا يعرف حتى اسم أمه!

ثم يقول له السجين –"شكرا ل....."

وفجأة، تتخذ الكهرباء مجرى دمه... حينئذ، يتجنب أولئك الحالمين هاته النهاية البئيسة، المسدودة و يعودوا إلى خيالهم... خيال آخر جميل ... بعد أن يفتح الباب الصغير للبوابة العملاقة و يظنون أنها خدعة، يتراجعون، يفكرون، يقلبون جيوبهم ،أفكارهم ...يجدون الحقيبة الكبيرة على أكتافهم

،يفتحونها حتما : علبة سجائر ،ساعة يدوية لا تسمع لها دقة، كتب ،صورة لابنتهم أو أمهم...يتنهدون ويضعون خطوتهم إلى الخارج، إلى الحرية.

نعم، ذلك كان مجرد أكذوبة يسقط لها عرش القيصر بذلوا فيها جهدا لا يقع على المنطق ،لأن الحدث الذي جاء لأجله الحراس قد اشتعل حماسا بالفعل : كان ذلك الخمسيني متورم الشفتين يستخدم فمه كرذاذ بصاق مع كل كلمة يقولها .خلع قبعته ، كان رأسه يبدو مربعا ! لا بد وأن أفكاره كانت هي الأخرى مربعة الشكل! تأخذ شكلا لاسعا، قاسيا ،توخز كزواياها الأربعة الحادة.

وقف أمام الزنزانة المعلومة، زنزانة الثائر المحب للتجارب الشنيعة خاصة .أخذ يركل بابها بعنف.

لكن لماذا ؟ يمكن أن يستخدم تلك المفاتيح الكثيرة بسهولة تامة فيفتح بها باب الزنزانة، لكن لا، لم يكن يفكر هكذا، أراد أن يتخلص من غضبه العارم و يشنه على باب حديدي. لكن رغم ذلك، الباب كان صامدا ،لم يفتح وحتى بعد تدخل آخرين ! لا بد وأن هذا الأخير أراد أن يبرهن على وفائه و عناده المريرين.

كان السجينان الآخران في تلك الزنزانة يصرخان كأرملات ضعيفات توفي زوجهن و ترك لهن عشرة أبناء، لقد كانوا يوبخون متزعمهم باستمرار مع أنهم ليس لهم أي دخل في تلك القضية، و يحلفون بالله وسط تلك الضوضاء الصادرة عن الركل العنيف لباب حديدي سمكه يفوق سمك راكله ! لكنه لن يسمعهم، إذ إنه مشغول الآن، يتصبب عرقا، يسب و يتوقف ،يمسح جبينه ،عينيه... ثم يعود إلى معركته النفسية التي سينتصر فيها عاجلا أم آجلا.

و انقضت أربعون دقيقة ، انتشر ضوء خاطف... بريق المفتاح ،يدخله في القفل ...

لم يفتحها !

للأسف، كان ذلك المفتاح الخطأ .أرجع ذاك المفتاح في حلقته الضخمة إلى الوراء لكي لا يدخله مجددا ،ثم أدخل مفتاحا ثانيا ; إذ حدق فيه جيدا. إنه يدور، يدور في القالب الفارغ الداخلي للقفل- لا بأس، كان صغيرا، لا يلائمه... أدخل مفتاحا ثالثا و رابعا و خامسا...

لم يتقدم أحد من الحراس ليعطيه المفتاح الصحيح لأنه يعرف المفاتيح جميعها كظهر يده . لقد كان يلعب نفسيا بفعلته تلك !

كانت الحسرة و الانتظار الممل الذي لا ينتهي بخير من سمات المشهد. كان السجناء يسمعون و هم يراوحون ويتنفسون بشدة .كان عماد هو الآخر ، خائفا في زنزانته يترقب ، ينتظر وصول ذلك العجوز أمام الزنزانة 13 ،فيبدأ في إزعاج قفلها بمحاولاته الفاشلة المبتذلة ،لكن رؤوف طمأنه وأودع فيه بعض الثقة، لأنهم لم يفعلوا شيئا .لذلك، ففي نهاية المطاف سيمتلك ذلك الحارس قلبا بطوليا و لن يزعجهم. إنه مثل اتفاق استثنائي :

"قد أسبك ،أشتمك و لن أضربك .أطعني و لا تواجهني ،لا تتفوه بغير "نعم" بعد ذلك سأنصرف.. ما رأيك؟ "

و ما إن يبدأ السجين بإجابته : " لكن أنا..."

حتى يتدخل السجان الخمسيني قائلا :"أجل ،سأعتبرها إجابة بنعم."

كانت وجوه المساجين تلتهب كوجه مصيرهم، فقد كان بعضهم يختلط على وجهه الدمع و الآخرون يستمتعون و قلوبهم ملآى بالفرح و الألم، يغمزون بعضهم و لا ينتظرون نهاية للمشهد.

بعد محاولة أكثر من ثلاثين مفتاحا ،أصبحت برادة الحديد بارزة على الأرض ; و لم يفتح الباب ! بعد ذلك قال السجان مخاطبا السجين الثائر الذي ما زال ثائرا :

-"قع أرضا و ضع يديك خلف ظهرك"

فعلها دون تردد.

أخيرا، أخرج ذلك السجان المفتاح المنشود .كان يعرفه جيدا في الرزمة رغم أن المفاتيح كلها تبدو متشابهة. فتح الزنزانة ،أخرج ذلك الثائر الباكي، كبل يديه ثم ساقه إلى الزنزانة الإنفرادية. هناك حيث سيقبع في ظلمة منتصف الليل الدائمة. و الأكثر ضراوة هو أنها توجد في الطابق التحأرضي .. أعطت ظهرها للقمر والشمس و انغلقت على ذاتها المتعفنة. لقد وضعت كشيء غريب تختفي فيه مصادر الحياة !

سيبقى هناك حتى ينسى الزمن و ينسى تعنته ;مقلوب رأسه الى الوراء ينتظر انقلاب الليل و النهار ليبدأ في رسم خطوط العد على الحائط. سينتظر طويلا، إلى أن تطال لحيته و شعره فتهاجمهما الحشرات الطفيلية كحمة السيدا التي تجد الرطوبة و الظلمة ملائمة لتكاثرها ونموها.فيحس بالتدريج ما يحسسه الواحد من الخزي و العار بعد خسارته كل شيء.

اعتاد هذا الثائر على مضايقة السجانين، فعذبوه مرارا ،إذ يحرمونه من الغداء ومن الساحة...و يثقلونه بالأعمال الشاقة القذرة .في بادئ الأمر، استخدموا معه العذاب اليدوي الشحيح ،إذ كانوا يربطونه على طاولة يثبتون يديه و رجليه معها، و يضعون رأسه مباشرة تحت قطرات الماء التي تسقط على جبينه، بين عينيه مدة طويلة ; حتى يبدأ بالصراخ الهستيري و عض لسانه... و على حسب ما يقال، فإن الذين يخضعون لهاته التجربة البسيطة الشرسة فعاليتها، ينتفض مخهم و يهوون الى

الجنون ،يظلون أياما و ربما شهورا يترفون بحمق ويتكلمون بلا معنى و رغوة اللعاب تسد فاههم ...

و بواسطة هذه الوسائل الشحيحة عذب هذا الثائر مرارا، لكنه لا يكترث ! يظن كثير من المساجين أنها لم تعد تؤثر فيه، فلربما جن فعلًا، إذ إن تصرفاته كانت تتغير بسرعة ،يبكي بحرقة عند استيقاظه من النوم وعند استحمامه ! لم يعد يحب التجديد أو شيئا يبعث عليه .ألف الحياة الخامدة و الكلمة الثائرة التي يرسلها من بين أسنانه.

و هكذا ظل كلامه يحرق أعصاب ذلك السجان العجوز حتى انجرف غضبه الى الأسوء ; فأودى به في الزنزانة التي يطلق عليها المساجين "المطمورة": أغلب من يدخلها لا يمكث إلا أياما حتى يخرج من السجن... فيلج مباشرة مستشفى الأمراض العقلية حيث تبقى ذكرى" المطمورة " راسخة في دماغه، يرددها في جل أوقاته .

الفصل الحادي عشر

في أمسية ذلك اليوم ،في الزنزانة 13، تأثروا بشعاع القمر يسقط عند أقدامهم ، تصافحوا إحياءً لذكرى عذابهم المكتوم و الأليم .حول كؤوس من الشاي سيمرر هذا التواصل في عروقهم الرعشة التي نسوها مند زمن طويل.

كان صمت شبه أبكم ينتشر في هواء الزنزانة و هم يتجرعون كؤوس الشاي ; أحضرها أحد الحراس... فكانت أوجههم تنعكس في ذلك الشاي حمراء كأثر يخبر عن زوال محزن : زوال عاطفتهم و محبتهم...

إن عصام قد تعذب عذابا مكبوتا، طويلا و حادا لا يراه أحد ولا يعلم به أحد و لا يمكن لأحد أن يكتشفه، لكنه يفلت من عقاله ليلا في عزلة ظلام الزنزانة ثم يقول بصوت ذليل ينم عن الإعتراف الكامل :

-"لقد كنت فقيرا و كنت خجولا من فقري و من عائلتي و إن تكلمت لكم اليوم عن عائلتي فلأنني ما عدت أخاف شيئا و لا أخجل شيئا "

سد رؤوف كتابه و رشف كأسه بسرعة و بدا أنه متلهف لسماع قصة عصام الذي لطالما احتفظ بها لنفسه ،أما عماد فكان هو الآخر يحس بالمفاجأة التي يسيء اخفاءها.

قال له رؤوف بعينيه المفتوحتين دهشة:

-"ما بال عائلتك لم تخبرني عن ذلك شيئا "

رفع عصام رأسه ببطء كبير كأنه يعاني كسرا في الرقبة، إذ كانت ذكرى عائلته دائما ما تثقل تحركاته و تغلفه بالعار .فلا يملك حينئذ سوى أن يقبع متوحدا بعيدا عن ثرثرة البشر...

-" نعم ،ككل الناس، كانت لدي عائلة ماتت عند موت والدي..." ثم عزم

بأن يبدأ جولته في الأماكن الخارجية لذكرياته، بعد ذلك يدخل على مهل الأليم فالأليم.

-"لقد كان والدي عاملا بسيطا يعمل في أحد المناجم بضواحي مدينة ميدلت ،و ذلك كان في عهد الإستعمار الفرنسي .كان والدي يحبنا، يرعانا ،و يوفر لنا ما نشتهي، إذ كان يمد لنا الحلويات واللعب بيديه المشققتين المغبرتين و هو يبتسم ! " توقف قليلا ثم قال " لم يكن يريد أن يبعث فينا تلك النفس الخاملة و تتربى لدينا فكرة أن أبانا عامل فقير، بائس، يضحك أمامنا والدمع يقاوم عينيه الجافتين ... و كنا نحس ذلك بطول غيبته : فقد كان يهم بالذهاب الى عمله على الخامسة صباحا ثم يعود ليلا منهكا شاحب اللون. كان يبدو لأمي كشخص تعرض للجلد وبقي حيا يغطي احمرار ظهره بجلبابه الرث.

بصراحة، لم أكن أعلم شيئا. كانت أمي تعلمنا أن الرجل هو الذي يشتغل بعرق جبينه و يحضر لقمة العيش الى أبنائه و عائلته، و لكن بعدما اشتد ساعدي وعرفت قليلا عن الأمر، تبين لي أن أبي لا يعمل بعرق جبينه فحسب، بل بتلك البلازما التي يتكون منها دمه ! إذ اصبحت مفاصل يديه و رجليه يوما بعد يوم تنذر بعطب شديد سيدوم طويلا...

الأهم من ذلك، اشتغلت أنا أيضا في ذلك المنجم تقريبا، كان عمري عشر سنوات .كنت أهم عند أبي أراقبه و أراقب دزينة العمال التي تستعمل وسائل بدائية للحفر، وأحيانا أيديهم العارية و كانوا دائما ما يشتكون سوء المعاملة ونقص التغذية فتتجهم سحناتهم و يبدؤون بالاستعدادات الفاشلة لافتعال إضراب لتحقيق مطالبهم، و سرعان ما يهم إليهم أحد المسؤولين الكبار الذي يكون غالبا من الفرنسيين، فينظر إليهم كرجال مثيري الشفقة، انكمشت ووجوههم جوعا و يبست شفاههم عطشا. فيبدي تعاطفه معهم، إذ يتعرق قليلا، ثم يمسح بمنديله المصنوع من القماش الأملس وجهه، و يحاول جاهدا أن يملأ الدم وجنتيه، و أن تبرز عروق عنقه الزرقاء ليخرج صوت المبهور من حنجرته. فيبدو كشيخ يحاول استعادة أنفاسه الثقيلة كالحصى...ثم يقول لهم بلغته العربية الرديئة :

-"أنا شخصيا أعدكم بتحسين أوضاع هذا المنجم"

ثم تتعالى صيحات خائفة خافتة...إذ أصبحوا يخافون أن يطردوا من العمل، وبعد أن ينظر إليهم ثانية بذلك الوجه الذي رسمه قبل قليل فتحس أرواحهم المغلوبة على أمرها بألآم صامتة فيعودوا بعد ذلك إلى العمل و هم ينتظرون اللحظة المناسبة لإعادة تلك الانتفاضة الغبية.

كان كل شيء يجري مستميحا عذره و يبدأ من جديد ; إلا الصحة هي التي لا تبدأ من جديد .فبعد أعوام من العمل الدؤوب و القاسي تخردل أعضاء الانسان و تضعف إرادته... وتحت الدموع أصبحت بسمة أبي

منقبضة بعض الشيء وكان يقول لي ووجهي كسته دموع الأسى : "لا توجل يا بني، إن كل شيء سيجري على خير ما يرام"".

وكنت أحدق في يديه، رجليه، و لم يكن يحركهما –حتى إنه كان يعاني صعوبة عند الكلام.

ظل على هذه الحال أياما، جثته الهامدة تحرك جفونها. و قد سألت أمي مرارا لكنها كانت تقول لي أن ذلك طقس من طقوس استجلاب الرزق و لا يحق لأحد التدخل فيه."

وبدأ عصام آنذاك بالتكلم وحده، ملوحا بأيديه الفارغتين ...

-"لا يا أمي، إن هذا أمر بليد ،إنني عندما ولدت ظللت تقولين لي أنني نذير رزق على المنزل لأن أبي وجد عملا في ذلك المنجم الهالك وعندما اقترب أجله قلتم لي إنه يستجلب رزقا ...فمن ذا الذي يجمع رزقا و هو على فراش الموت، وقد استحكمت العلل بجسمه الهزيل .. راقدا بدون حراك ! أجيبيني يا أمي ! لماذا حياتي كلها و أنت تكذبين؟ ألم تحذرينا من الكذب؟ ....فلربما أحسنت التسديد حين قتلتك "

ثم يجهش بالبكاء ،و يضرب يد رؤوف الذي أراد أن يمد له يد العون ثم استأنف قائلا :

-"إن أكبر غلطة طاعنة هي زواجي .لم يكن لدي عمل ! و لا مال ! ولا مأوى ! و كنت على علاقة سيئة بأمي التي كانت دائما تطردني من المنزل و لا تعطيني حتى قطعة خبز !

كلما وجدت وجهي ملتصقا أمام عتبة الباب، تنهال علي بصراخها البليد وبحركاتها المتناثرة العشوائية، أحسها تلطمني على وجهي و تدعو الجيران لإبعادي و كأنها لا تعرفني ... و أنا قلبي أين أضعه ! أجيبيني يا أمي !

لم تعد تحبني أو لم تحبني قط، حتى أبي لم يكن يحبها. كان قد تزوج بها لينجبني أنا و إخوتي و هذا معقول بالنسبة إلي.

...بعد أن مرضت ، مرضا عقليا ربما ،ملأت قروح الشارع جسمي. فقررت أن انهي هذا الاتصال العشوائي .

ذهبت في أحد الأيام عندها، لم ترد إدخالي كما العادة و لكنني أصررت عليها بأن لدي مالا أريد مشاركته معها. كانت زوجتي عندها، تعيش معها، فأحسست بأنها متآمرة معها ضدي...

ثم لم أتذكر ماذا فعلت ...وقد أقول لكما إنني قتلتهما أو لا أعلم .. فلربما قتلهما أحد غيري و هرب !على كل حال، ندمت على ذلك ،كانت يداي مدرجتان بالدم !"

-"قتلت كل ساكنة المنزل " قال عماد

-"لا ...تقريبا. كانت خالتي هي الأخرى في المنزل ولم يصبها أي مكروه ،و كانت ربما نائمة على الأرض ."

طأطأ رؤوف رأسه قائلا :

-"نعم لقد أغمي عليها..."

-"ربما...لكنني لم أكن أريد مالا ولا ذهبا ... لم آخذ لا مالا و لا ذهبا"

صاح عماد متلهفا لسماع التكملة .فقد كانت له رغبة متلهفة على شفتيه في أن يساله " هل جمعت الجثث في بيت أو شيء من هذا القبيل "

-"لقد كانت الفوضى، الدم، الغطرسة...لم أشأ إزعاجهم فخرجت. لم أعد أنام بعدها و أصبحت أراهم في المنام يتمثلون في صور بشعة خليعة."

-"يقفون عليك بالليل" قال رؤوف

-"نعم، كل يوم " قال عصام بحزن

-"اسأل من الله الرحمة " قال له عماد وهو يرثي لحاله. و بعد بضع دقائق من الصمت استطرد يقول و قد شاعت في نبرات صوته رنة خجل :

-"هل دخلت السجن حينذاك "

حدجه عصام بنظرة غريبة و عينين مستديرتين من الدهشة ثم أردف قائلا :

-"مثلي لا يدخلون السجن .فقد تجاوزت جريمتي حدود الجريمة و تلك الترهات : قتل عمد/درجة أولى...على العموم ، أدخلوني مستشفى الأمراض العقلية، مكثت هناك أتعالج لسنين "

ثم قال له عماد وقد انفرج شعوره :

-"حسنا، ذاك أفضل، فإنك لم تكن في كامل قواك العقلية و النفسية...لقد تفهموا الوضع ،و لكن كيف انتهى بك المطاف هنا...أقمت بشيء سيء"

بدأ عصام يدور رأسه مرارا نافيا ما قاله عماد، و كانه يقول له أن كل ما تقوله عبث في عبث في عبث...ثم أردف قائلا :

-"إن المستشفى أفجع من السجن" ثم أضاف بنبرة بليغة "إن المستشفى أقوى من السجن .الرعب! حرب و مقاومة، وكن متأكدا أنك لا ترى إنسانا هناك-بالأحرى، إنسانا عاقلا .الذباب، القمل ،البراغيث... ورغم أنهم ينظفون المكان بانتظام فلا شيء يتغير.

إن المرضى يتبولون في كل مكان، فوق سريري ،فوق منضدتي، في الأروقة، الممرات...كل شيء لهم " ثم بدأ عصام بخطابه الفارغ يوجهه لنفسه :

-"أنا لا يهمني إن قاموا بمبادئهم، مبادئ المستشفى .ما يهمني هو معرفة ما إذا كنت قادرا على القتل أو أنني قتلت مسبقا ! لأنني وصلت الى الحدود التي يصدم بها كل فكر .ها هم ينامون : رؤوسهم تحت السرير و أجسادهم الى الخارج، يعضون أيديهم بأسنان بعضهم البعض ،يكتبون بخط غير مقروء بطريقة يعكسون فيها اتجاه الكتابة! ... أعتقد أنني لا أكترث لوجودي في التناقض أو لا أحتمل ذلك ... حتى إنني لست راغبا في تذكر أداة القتل التي صرعت بها أمي و زوجتي...

ولسوء الحظ، لم أجدها. فلو وجدتها لقتلت بها نفسي و ذلك لإدراكي أنني أستطيع قتل نفسي و علي استنتاج كل العواقب . فبعد ذلك، سيكتشف أولئك المختلون عقليا أنني تخلصت من ذلك التناقض الذي أسرت فيه نفسي فيفهمون بطريقة أو بأخرى أن القتل هو التخليص من سجن الحياة و التناقض... يخرجون تلك الأداة الغامضة من صدري و يضعونها في صدورهم عقابا للحياة. والأكثر من ذلك .. قد يضحكون !

أمعن عماد النظر في وجه عصام بارد الملامح :

-"لا بأس ...وكيف كانت معاملة الأطباء لكم ، هل كان يموت أحد؟ "

-"ماذا، هذه قصتي، قصتي أنا ... لم أرى أي شخص يموت هناك، ولكن الأطباء كانوا يكبلوننا بتلك البذلة طويلة الأكمام ،ثم يجعلوننا نتعاطى لأدوية لا تزيدنا إلا خبالا و لا يكترثون... ننام أكثر من نصف اليوم

و نغفو الربع أما الربع المتبقي فهو للأمور الخارجة عن نسق العادة ..." ثم سكت و الشوق يداهم رأسي عماد و رؤوف، رشف كأس الشاي في مرة، ثم قال وقد رتب كلامه ببطء :

-"عندما مات أبي مت أنا"

كان سؤال كيف؟ طبيعيا

-"مات أبي سنة 1936 ،بعدها بسنوات، بعد الحادثة(قتله أمه وزجته) أدخلت المستشفى الملقب ب "36" ... أنا لا أرى ذلك صدفة، و إنما منطق ثابت نضيع فيه حيواتنا .

لي أنا و أبي نفس المصائر : هو أمضى حياته يغوص بجسده النحيل في باطن الأرض يحمل مصباحا و كيسا و مطرقة و بعض الخبز... يمضي اليوم كله يبحث عن معدن الرصاص أو الحديد; و أنا ففي السجن. كان أبي متعثر الحظ، مثله مثل جميع العاملين معه."

و لم يستطع رؤوف الذي خنقته قصة رفيقه إلا أن تنهد.

الفصل الثاني عشر

(بعد أيام)

الوقت متأخر الآن، فقد بدأ منتصف الليل و على جبين هذا الليل الأصم الأبكم كان هدوء مفعم بنغمات تجعل المساجين يخرسون في زنزاناتهم !

اقترب عماد من الباب و موسيقى حزينة تجعل معاني الحياة العابرة تنتصب أمامه، فلا يرى سوى ملامح الآمال و الأحلام التي جعدها الحب و جعلها كملامح العجائز !

كان صافي الذهن و حاضره، كما لو أن نورا قويا تفجر حوله بغتة، ينظر إلى كل ناحية فلا يرى سوى ماضيه القريب، حبه الأهوج... طريق متموج، مظلم، سلكه وهو يريد أن يضيئه بشمعة انطفأت في نهاية المطاف .يقف و يتحقق من بين قضبان زنزانته ويرى بعض الوجوه في زنزاناتها يلتهب بريق عينيها في الظلام. كانت هامدة صامتة... وكان يشعر بملامس أرواحهم و نبضات قلوبهم التي عشقت ذات يوم عشقا، أعمى على الغالب !

تسرح أفكاره...

ينظر فيرى أمه تبارك له زواجه... لم يستطع التعرف على عروسه. كانت جميلة و قد سدلت الحشمة على وجنتيها .يتحقق من وجهها جيدا. يسألها، تحمر خجلا .تلتفت نحو يمينها... يزيد إصراره بعزم يبتسم كالأزهار، يدير وجهها نحوه ثم يضحك ... لم يعرفها، لم تكن لا رقية ولا غيثة و لا ... إنها الشبح الساكن روحه، ضجر من ظلم الوحدة وظلمة السجن فخرج يظهر لصاحبه كيانه و محيطه بكل ما أخفاه من

محبة، سعادة و جمال.

وعماد الآن، يشعر بكيان روحه .... يشعر بحراكها و يسمع ضجيجها يرتفع و تميل مرتعشة مع الأغنية. . .

كانت السعادة منبثقة من الزنزانة 15 ،إذ فيها يوجد راديو يشغله صاحبه كل ليلة ليطرب مسامع المساجين بصوت الشاب حسني، ملك الأحزان العاطفية ، فينثر الغبار الخانق لأغطيتهم عن آذانهم و يجعل بينهم و بين الليل سلاما طاهرا جليا...

" طال غيابك يا غزالي راكي طولتي في الغربة

****

شدك الحب ادلالي عليا و علاش هاد الغلبة "

عاد عماد يجلس على سريره بعدما فرغ ما فيه من الأحاسيس الجياشة عند باب الزنزانة ،لقد كان حنونا !

أما رؤوف وحيدا يرتدي البساطة و يتغذى على العلم، و يسهر في سكينة الليل منتظرا تشكل وحدته ليغلبه الأمر فينام . آنذاك، كان يسند رأسه إلى الجدار و يمد وجهه نحو تلك النافذة الصغيرة ... و أمام كل ما في العالم من بدائي و رفيع، أحس بأنه في حاجة أن يقول شيئا، أن يتكلم، أن يتواصل، فالتواصل مع الكتب لا يكفي، لا يحرر الإنسان من قيود الواقع . وإنه لو كان كذلك، لعاش الانسان منعزلا، و لانقطع النسل ، ولهدمت امبراطوريات و لانعقدت الوحدة في قلوب البشر ... و إن أبسط شيء سيهدم هذا العالم الأخرس هو المرض، فما إن يمرض أحدهم وهو منعزل، فلن يجد حتى من يعيله على الوقوف، لأن النفس البشرية الضعيفة التي نفرها تتكون منها ذاته، و تحتاج دوما إلى سند آخر : نفس بشرية أخرى تتكأ عليها و تسير معها طويلا عبر قساوة الأجيال.

كانت التأملات و التذكارات تتزاحم على نفس رؤوف ، فتتوقف أمامه معاني الحياة الغابرة، فيقول وهو يحدق في عماد :

-" لقد كنت طبيبا نفسيا "

أحس عماد بأن ثغرة جوفاء يعاد ملأها ، لأنه كان لديه يقين تام بأن رؤوف ليس كمثل السجناء الآخرين، لا يشاركهم اللحظة كثيرا .و الآن، حان الوقت ليرى بهاء النهار و يعرف ماهية رفيقه الذي كان يضعه في مقام الأخ.

يعرف عصام كل شيء عن رؤوف ، فطيلة السنوات الأولى له في السجن ،كان يقص عليه رؤوف قصته و يعيدها مرارا حتى ابتلعتها الجدران، و ينتظر منه في كل مرة أن يكلمه، أن يصرف طاقته المكبوتة، السوداوية وأن ينعزل عن وحدته ،إذ إن رؤوف لطالما أحس بأن عصام لديه طاقة لا شعورية عنيفة مكفوفة ، تنتهز الفرصة للقيام بعمل خارج عن الإرادة الإنسانية ، منافيا للنزعة البشرية ... و قد كان يكشف له عن تفاصيل يمكن أن تكون على قدر من الأهمية بالنسبة لتأملاته اللاحقة ، وكبح رغبته الجامحة في التدمير...

بادر عماد إلى سؤال رؤوف قائلا :

-" كم حكموا عليك ؟ "

-" عشر سنوات ،قضيت منها سنتين و ستة أشهر."

أظهر عماد بعض التعاطف مع رفيقه فكنز شفتيه و أخنع رأسه ... ولكن كان في نفسه الخفية حب كبير ،يمرغه في الفضول و الحاجة الى معرفة قصة رؤوف ،وما بال العشر سنوات؟ كان هناك شيء شبيه بدقات الساعة الحائطية يهز أعماق مخه، يرفع رأسه تارة و يدسه بين ركبتيه تارة أخرى .

رؤوف لم يكن من العاجزين ، لأنه يعلم يقين العلم أنه فتح معضلة جدية فعلا، والمعضلات لا تحل بالسكوت أو الخجل ، ومن بين أوحال الذكريات ، ها هو الآن أمام الأبواب العملاقة لماضيه ، غير منسق... فجاء عماد كبواب بوجه محتقن فضولا لكي يضع مفتاحه في قفلها.

قام رؤوف على الفور بصب ذكرياته شيئا فشيئا :

-"لقد كنت طبيبا نفسيا ،أملك عيادتي في مدينة الدار البيضاء، وككل الأطباء لدي مرضاي ،يأتون إلي في مواعيدهم ،يشكون الي آلامهم، شعورهم، أحاسيسهم ... لا يبخلون بشيء ،إذ إن كل نقطة صغيرة تقود إلى شيء في الطب النفسي !

أما أنا فكنت مخلصا ،أحاول جاهدا أن تتغلغل السعادة في قلوب مرضاي، وإبعاد قدر الإمكان الإغراء الكبير بالنسبة لأناس مثلهم و هو الإنتحار... و لقد كنت أنجح في ذلك في حين فشل فيه غيري من الأطباء الأغبياء الذين لا يقدرون حتى العيش بسلام مع ذواتهم ، و إنهم أكثر خطورة على البشرية ،إذ إن آرائهم مجرد عبارات مثيرة للشفقة عن الشعور بالذنب و الخيانة... ولكن المريض يكون آنذاك مستسلما لابتسامتهم التي درسوها بعمق، لا يستطيع فعل شيء لإيقافها أو التأثير عليها. يقولون لمرضاهم بنبرة أصحاب الإعلانات و الابتسامة دائما ،أن الحياة جميلة، و أن يختاروا دوما الحل الأفضل، و في الوقت عينه، يتخيلها المشتكي آلامه، الذي اغرقته الديون أو لقي ابنه حتفه أو هو كان سيلقى حتفه في حادث مريع... بأنه سيذهب فعلا إلى الأفضل، و أنه يتمتع بقدرة التمييز بين الخير و الشر ... يذهب الخير بعيدا ،فيبقى الشر بطبيعة الحال ،يلقي لمساته رويدا رويدا إلى أن يهلك المريض من عناء التفكير ومن الشكوى إلى أناس لهم آذان و لا يسمعون ،و لا يريدون أن يسمعوا ; وقد يأتي الخير مسرعا ،فيمنع أبشع اللحظات : لحظة الوقوف على كرسي وأيدي الحبل تمسك برقبته... أو رجليه المرتجفتين على حافة شرفة من الطابق الرابع...

ثم سكت قليلا، و قد تملكه الانفعال و أخذ يتكلم بصوت غليظ :

-" لقد قلت لك هذا يا عماد، لأن أولئك الأطباء الوهمية أفكارهم ، آرائهم ... كانوا يقصدونني، يستشرونني... و كنت دوما ما أقضي حوائجهم و لا أتردد.

حتى إن حراس هذا السجن ،كان بعضهم يقصدني ; يأتي متلهفا، خاضعا ... لن تعرفه. تركه سلطته و تجهمه هنا، و انطلق إلى عيادتي بريئا! كانت الكوابيس تراودهم ،الأرق يغزو أعينهم ،أوجه المساجين البشعة وتصرفاتهم المفاجئة التي تنتصر في الأوقات الملحمية... كل ذلك كان يصدر في أنفسهم صوتا كدبيب النمل .أوتعرف دبيب النمل ؟

هده الحالة تصبح شائعة عند الذين لا يرون الضوء كثيرا، يقبعون في أماكن ندية و مظلمة. أيضا ،الجهد الكبير الذي يبذلونه و اليقظة الدائمة في هاته الأماكن. يصاب بهاته الحالة حراس السجون غالبا،عمال المناجم،العلماء الفاشلون ... و أيضا الذين اسودت أفكارهم كأولئك الأطباء الفاشلين الذين ليس في أفكارهم سوى أفكار الندم و لا يظهرونها. تراهم يسطعون بأوجههم الباهتة في البرامج التلفزيونية و اللقاءات دون تردد ... ينتظرون أيام الآحاد بفارغ الصبر لرؤية أبنائهم !!

يا الهي ! و الان، إنهم ،لا يسمحون لي بالارتياد على زنزانات السجناء و مواساتهم ومشاركة أحزانهم... أنا نادم أكثر من ذي قبل، لدي خبرة عميقة ولا أشاركها، أحبسها، أغور بها عميقا... لكن هذا هو السجن !

كان رؤوف يؤدي دورا يستدعي التصفيق، إذ أنه بعيد كل البعد عن ما قاله عصام . لم يكن كلامه غريبا أو شيئا ناقصا دائما ما يحتاج التأويل، فقد رأى عماد أن تلك الكتب التي يحملها رؤوف دائما، قامت مقام النطق الآن ،فصيحة وواضحة.

عماد لا يفوت أي فرصة، يتابع بدقة و اندفاع ، و ها هو قد تغلب على خجله، يقول بصوت مرح :

-"أو تعلم يا صديقي ، فمنذ أن رأيتك للوهلة الأولى في السجن، أدركت أن الحظ ابتسم لي، فرفيق مثلك ،بهذه الأخلاق و الثقافة... صعب أن تجده في السجن.

لقد استلغيت ما قلته لي ،و إنني أدرك أنك بلغت سببا لاستيقاظ أعدائك: لقد نجحت. نجحت في حياتك، في مهنتك ،بين الناس... وهذا طبيعي، فثعالب النجاح - على الأرجح أعداء النجاح ، دائما ما يتربصون و يترقبون، يسددون و لا يخطئون... فقط الأمارات التي يتركوها تختلف من شخص الى آخر ; حسب ذكائه، دهائه و مكابدته الحياة. ثم بدأ يضحك و يقول :

-"اعذرني يا صديقي، لقد كنت وحيدا، متشائما، لم أنجح ... لم أرى أعداء النجاح، تمنيت ذلك ،لكن للأسف كنت منهم دون أن أشعر...

فقد دمرت حياتي و دمرت علاقة صديق لي بزوجته... حين أحببتها."

-"نعم ، أعلم ذلك" قال رؤوف

-" ماذا تعلم ؟" انتفض عماد بذهول.

-" هون عليك يا صديقي ،أنا لا اعلم شيئا عن حياتك الخاصة، لكنني أعرف أن الحب هو الذي لعبها بك ، ولقد قلت لك هذا الكلام ذات مرة ألا تذكر؟

-" بلى، ولكن لننسى هذا ،الحب، النجاح، أعداء النجاح، الاستيقاظ... فأنا ما زلت لم أرى سببا في دخولك السجن !

أحس رؤوف بذلك النغم الصافر من أعماق الزنزانة 15 ينفد الى أعماق قلبه.

أخذ صوته يحتد و أخذ يتكلم جادا كل الجد.

-" أنا لم أواجه شيئا سيئا مع أولئك الأطباء النفسيين، بل مع مرضاي، مريضة على الخصوص. لا حاجة لك في اسمها ،لذا لن أذكره.

كانت ترتاد عيادتي بإلحاح ، و كما العادة ،أخبرتني ببعض التفاصيل في حياتها و التي ما لبثت فيما بعد أن عرفت دقها ،جلها، سرها وعلانيتها. حتى إنني أصبحت أعرف كم من كأس زجاجي، ملاعق، شوكات... في مطبخها !

كانت متوحدة، لم تتزوج يوما، ولم تتعرف على رجل يوما ،باستثناء واحد من أولئك المحبين العاثرين تعرفت عليه في الجامعة. كانت تشتغل في محل للخياطة، فأنشئت من ذلك ثروة محترمة، استهلكت غالبها في جلساتها عندي ، وكانت مسرورة لذلك ،متلهفة لمقابلتي ."

قاطعه عماد قائلا : " إذن كانت تحبك"

-" لا يا صديقي، لا تتعجل، اصغ إلي و سترى" رد عليه رؤوف بأدب

ثم استرسل قائلا بعد أن تبادلا ابتسامة مجنونة :

-" صارت ضوضاء ارتيادها عيادتي أكثر من المألوف ،فأردت أن أضع حدا لذلك، فأنا لست من أولئك الأطباء اللذين يرون في مرضاهم حقائب نقود تأتي و تذهب و تخلف ورائها حصصا لا بأس بها ... لقد أقسمت بأن أراعي الله في عملي ،وقد وفيت به! "

و بعد دقائق من الصمت تزيد الحديث لذة، قال :

-"لقد كانت تخاف الصراصير، وأنا لا أقصد أنها تخاف و حسب ،فكلنا نخاف من أشياء كالحوادث ،العقارب، الأفاعي... و لكن هي خوفها كان استثنائيا ليس منه اثنان ، فبمجرد ذكر الكلمة تدخل نوبة من الصراخ

الهستيري و العض والركل التلقائي ... وحالما تنتهي لن تتعرف عليها، تراها أصبحت في الستين في عمرها ; في عمرها الحقيقي –على الأرجح. فكما تعلم الأكسسوارات ،الملابس الانيقة و المكياجات تؤخر العمر بسنوات ! لكن خدعا كتلك لا تنطلي علي، فيكفي أن أعرف ذلك من صوتها المحشرج الثقيل و التي كانت تبذل جهدا إضافيا في جعله يناسب الشابات الجميلات الحنونات. و إن الشيء الذي يقف فيه أطباء التجميل و اخصائه مبهوتين و عاجزين هو الصوت، لا يملكون له صوابا، و يغطون ذلك بالتدريب و ممارسة الموسيقى وسط الجوقة... لكن ذلك في نظري ليس معقولا.

لكن ، على العموم حاولت استنطاقها مرارا و الغوص في أفكارها لمعرفة السبب، فوجدت أن ذلك مرتبط بالجامعة، وقد تتساءل ما قد يقع في الجامعة ؟ ويثير حفيظتها نحو الصراصير، و يجعلها عدوتها الرقم واحد في العالم بأسره. لكنني سأقص عليك ذلك كخرافة :

لقد كانت تسكن بعيدة جدا عن الجامعة، لذا ارتأت ان تكتري أحد الشقق و كما هو الحال ،سكنت أحد الغرف هناك مع طالبتين آخرتين، و السيء في الأمر، أنها لم يكن بإمكانها اختيار رفيقتيها، لقد كانت إلى حد ما تشبهنا نحن في السجن ; إلا أن رفيقتيها امتازتا في إثارة المشاكل ، الفسق ،إفساد كل ما هو منطقي... لم يكونا يحباها ،كن يعاملنها بوحشية و بنذالة : كن يسرقن ملابسها، أو يلطخنها بماء جافيل ،يفتشن أشياءها الخاصة و غيرها من المقالب الحقيرة والتافهة. بصراحة ،لقد كانتا الطالبتين الوحش !

لم تكن تقدر على مجابهتهما، و كانت تكتفي بعقد لسانها فينوب الدمع عن الكلام.

و في أحد الليالي ،قلبا سكينة الليل الهادئة و الجميلة بين أيدي وجود ممتلئ بالصراخ ، النزاع و الهستيريا ،فظلت تخلص ثمنه غمدا ،و حتى أنها

كبرت ، شاخت و انحلها الاعتزال، لم تتخلص مما دبره لها رفيقتيها البغيضتين. فبينما هي نائمة ،تربصوا و تتجسسوا في الظلام الحالك، الذي لا يختلف عن ظلمة السجن... فوضعوا لها صرصورا على وجهها !

للأسف، كان ذلك الصرصور كثير الحركة، فهو أيضا مشارك في تلك الجريمة، فقد لكزها مرارا بأرجله المسسنة الصغيرة على وجهها ،كأنه يريد ايقاظها عبثا... مرت دقائق ، وهو يؤدي دوره بفعالية و صبر حتى استفاقت. وجدته فوق أهداب عينها... ماذا أقول لك ؟ صرخت ،بكت، نطحت رأسها ، نتفت شعرها، ندبت وجهها ... كل هذا كان حاضرا في ذلك المشهد البئيس .

لم تكونا تلك الرفيقتان الحقيرتان تضحكان، بل إنهما خافتا و أحستا بأنهما بالغتا كثيرا، فلم يجدا سوى الاستنجاد بالجيران.و هكذا كانت قصتها مع الصراصير.

أنا فكرت مليا ،دعوتها الى الزواج، فلربما الأنسة ستخفف عنها وطأة التذكر، لكنها رفضت... دعوتها إلى رسم صرصور أو البحث عن صوره في الويب والتمعن فيها حتى يصبح شيئا عاديا، لكن لم يزد ذلك إلا من حدة الوضع. لجئت الى حيل صبيانية ; أجدت نفعا مع مرضاي، لذا دعوتها الى مشاهدة المسلسل الكرتوني " أوجي و الصراصير الثلاثة"، إذ إنهم يعرضون الصراصير كمخلوقات بدائية، رغم عنادها و مقالبها السخيفة، يتغلب عليها دوما أوجي ،و كل ذلك بأسلوب شيق .

جربت ذلك أمامي ،إلا أن حظها أسقطها في الحلقة التي تغلبت فيها الصراصير على أوجي و حلقت شعره...

ذكرتها بأن سكان الصين يأكلون الصراصير مقلية و أحيانا نيئة... لكن إجابتها كانت صادمة ،تلطم المنطق و تقودك الى الحمق. فقد قالت لي بأن

أمريكا عندما هاجمت اليابان الذي لا يختلف كثيرا عن الصين ;مات البشر و بقيت الصراصير ...إنها ملعونة !

في الحقيقة ،لقد زعزعت خواطري و سدت كل افكاري ،لم أستطع مساعدتها، و لكني لم أجرؤ على قولها لها... فتتحطم. و إنني لم أكن أريد أن تبان علي شائبة، أن يكون سجلي المهني ملطخا ببعض النقط السوداء .

ذات مرة، و بينما كنت نائما في منزلي مع أبنائي و زوجتي، جاءت تدق الباب... لم أرد إدخالها و لكنها أصرت على ذلك. اقترحت عليها بأن تضرب موعدا لأخذ جلسة جديدة في عيادتي، لكنها أبت و عزت ذلك الى وحدتها و اعتزالها و أنها تريد مناقشة أمور أخرى...

أدخلتها. جلست معها في الصالون و قد خدمتنا زوجتي ببعض الحلويات والشاي... بقيت أناقش معها أمورا حول حياتها ،جرت الأمور على ما يرام.

حالما انتهينا، ذهبت الى الشرفة تطل على الشارع، بينما بقيت أنا أراجع بعض الوثائق... التفتت إلي و قالت:

- "المنظر جميل من هنا !"

لم أرها، فقط حييتها و قلت لها :

-" نعم ، استراتيجي "

مضت دقائق و فجأة، سمعت شيئا مألوفا، شيئا غير عادي ،شيئا يذكرني بها، يذكرني بمساوئها لا محاسنها، إنه ذاك الصراخ و نوبات الغضب التي تفصل عقلها عن جمجمتها ...

هرعت إلى الشرفة ، و بينما أنا في الطريق، ألهث ... توقف الصراخ و ذلك البكاء المحزن المزري. لكنني قد سمعت ما هو أفظع و أشنع، صوت ارتطام قوي مع الأرض، على البلاط الإسمنتي أمام منزلي.

إن صدى ذلك الارتطام ظل يعذبني أياما بلياليها في السجن، و أنا اعرفه، فعندما كنت ألعب مع أبنائي ، كنا نرمي بعض اللعب من السطح أو الشرفة ونسمع وقوعها على الأرض ،ثم نضحك.

و ها قد صحت توقعاتي، فلقلما كانت تخطئ ... لقد كانت حينها بلا حراك، تسبح في مرجة من الدم.

فتشت عن السبب، عن الصرصور الحقير الذي أودى بحياتها، فوجدتهم صراصير ! كانت مجتمعة على براز قطتي... أول شيء فعلته هو أنني بحثت عن تلك القطة و رميتها بكل ما أوتيت من قوة لترتطم مع الأرض.

صدقني ،كنت حينذاك إنسانا بلطجيا ! لا أتذكر حتى رأسي من رجلاي.

يا للتعاسة ! فتلك القطة اللعينة لم تمت ،إذ وقعت على الأرض من ارتفاع أكثر من خمسة أمتار كأنها وقعت على اسفنجة! ثم هربت ، لم أرها بعد ذلك إن عادت الى المنزل أم لا.

هرعت زوجتي المسكينة و أبنائي إلي ،إذ سمعاني اختنق غضبا، أرقب المذلة، الوسخ الذي أدخلته منزلي ، ولم أعره بالا... تركته يدلف صحتي، أنفاسي، شراييني ...

لم يمض كثيرا... ثم قادوني إلى هذا السجن بتهمة لاذعة ' تهمة التحريض على القتل مع سبق الإصرار ... ' و تلك الترهات الحقيرة التي لا أطيقها.

أنا، أنا لا اعلم لماذا سبق الإصرار؟ على ماذا سأصر ؟على واحدة مثلها؟ إنها ليست إلا فاشلة، مريضة نفسيا ، لا تريد أن تتعالج ببساطة ! "

و في هذه اللحظة الحرجة ،بينما يتأمل رؤوف ذكرياته، كان عماد متوترا، لا يعرف ماذا يفعل ،و ليس بوسعه أن يتخيل الحادثة حتى! فقد أحس بأن صديقه دفع الى هوة سحيقة بسبب قصة خارجة عن المألوف، تفاصيلها سارت ببطء في المراحل الأولى و على خير ما يرام ... حتى اندفعت في اللحظة الأخيرة سامة، مستعصية على الأدراك ; تمحي عشر سنوات من حياة رفيقه، و تبعده عن فلذات أكباده ... وكان عماد يقول في نفسه- " لاشك في أن الأمر مخطط له بعناية ،إنه مكيدة غريبة دبرها له اعدائه.... كلما فحصتها وجدتها بعيدة كل البعد عن إيذاء رؤوف، و أن يده نقية تجاهها. لكن كيف؟ أظن أن تلك المرأة المريضة نفسيا، أرادت ان تنشر تعاستها و ترسخها في العائلات ،ترسخها في الجماعات الملتئمة، فوقعت عينها على عائلة رؤوف ; إذ نجحت في تهديم سلامهم الداخلي ،و أفقدته بغمضة عين : سقوط حر ثم ارتطام مع الأرض.

لا يكفي، لا أظن أنه دفعها ،أو دفعها أحد من عائلته ،أو أن تلك الصراصير دفعتها نزعتها الى ذلك... إن ذلك لا يبث بشيء الى المنطق ! "

ثم بدأت تتغلب تخيلاته على عاقلته ، وأخذ يسترجع حرارة أنفاسه، فاقترب من رفيقه على مهل ،وأبدى له شفقة في بؤسه،... فرؤوف كان غارقا في فنائه السحيق ،يفكر وقد أثقلت المشاكل أجفانه ،و أشباح تلك المرأة الميتة تعذب قلبه و تقف عليه ليلا ،كما تقف والدة عصام على ابنها !

-" ألا تظن أن ذلك غريب ؟ " قال عماد

-"ماذا ؟ "

-" قصتك ... "

-" لا ،إنها ليست غريبة، فقط جاءت تأجني دون سابق انذار... و لو كانت غريبة لما نام عصام، إنه يحب الغرابة ! انظر اليه لقد ضجر من قصتي ; إنه غائب عن عالمنا الآن، و لربما هو الآن في عالم الأموات، يبحث عن أمه ليطلب منها السماح. فقد أخبرني عن ذلك مرارا ،لكنه لم يكن يجدها !

أنا لا أريد قمعه ،و أقول له ان ذلك العالم الذي تتجول فيه في منامك ليس عالم الأموات، بل روحك، نفسك، ما تعمله في حياتك و تخاف منه أو لا تدركه ، و هذا هو الذي يتجسد لك في الحلم .لكن إلى حد ما ،اعتقد أن روحه أصبح يسمع لها نواح الأرامل ! "

استظهرت قصتي أمامه مرات عديدة، و لم يكن يكترث، إذ كان ينام غالبا ،او أراه يتفحص فراشه أو أظافره ... هو لا يريد أن يعيرني اهتماما و أنا اتفهم وضعه بالضبط ". سكت رؤوف بعض الدقائق ثم استطرد يقول :

-" خيل الي ذات مرة ،أنه أبدى لي رأيه حول قصتي "

ضحك عماد ضحكا خفيفا ،ثم سأله في الحين :

-" ماذا؟ أنت تقول لي أنه لا يكترث ! انسى ذلك، فلربما تخيلت ذلك."

-" لا ، أنا اعرف صوته ، إنه دقيق خفي يخدش الحس ، و أيضا لم يكن يوجد غيرنا في الزنزانة "

- " حسنا، حسنا ،ماذا قال لك؟ "

-" لم يتكلم كثيرا، ما قاله هو : لقد أوقعت بك !! "

أحس عماد بكتل من الندم تنصب على رأسه ،وأخذ يزفر زفيرا متقطعا يملأ صدره رثاء ،فكيف لقاتل من الدرجة الأولى أن يبدي رأيه في جريمة قتل ؟-على الأرجح ،سيكون ذلك صحيحا ،لأن روائح القتل الكريهة تزكم

أنف عصام دوما و تختمره بجراثيم العلل ،و هو أيضا يتفهم وضع رؤوف رغم طباعه الباردة.

لم يشأ عماد أن يترك صديقه في هذا الوضع، معلقا ،وكان لا بد أن يشفي غليله و لو بإعادة الكلام نفسه !

-" نعم ، قد تكون أوقعت بك... " قال عماد

-" و لكن ، كيف؟ "

بدا عماد متوترا لما أقحم فيه نفسه، فهو في خضم مواجهة متحسرة ،لا بد و أن يخلص في الأخير بنصيب أوفر من النظام و الإقناع ، لذا عزم على أن ينتصر بعناده مع أفكاره المستعصية، فكر قليلا ثم أضاف قائلا :

-" لا تحسب يا صديقي أنني لم اقابل نساءًا مثلها، لقد كن يشتغلن معي، وقد كن معظمهن ذوات آراء مبعثرة، كثيفة... تميل دوما إلى المال والحظ. لا بأس، فقد كن يمتلكن قليلا منهما ،كفيلا للسير بسعادة في الأرجاء، لكنهن كن يفسدنها دوما ،لأنهن زرعن أحلاما و فرضن قيودا يحصدنها في ما بعد نقمة، تبعثر أشواقهن ،فتجعلهن مرزيات !

ولا شك -في أن مريضتك تلك، لا تختلف عنهن ،إذ اعتبرت العزلة هي الحل الانسب للسلام الداخلي لتجنب لوعات بني آدم التي تفاجئ الانسان في كل مرة ،و لأنها على مستوى هابط من المنطق، أصبحت تثق في نفسها ثقة خاصة، جعلتها تظن أن افكارها سديدة...

و إني أظن أنها ألفتك ربما، إذ من خلال كلامك يبدو أنك أصبحت تعرفها أنت الآخر جيدا ،ولا تخجل في أن تدخل معها أمورا خصوصية. لكن بطريقة ما،هذه الأشياء التي لم توجلها، انهارت أمامها ;لأنك و لحسن حظك، اكتشفت انك مضطر الى التخلص منها ،فدعوتها الى البحث عن طبيب آخر بطريقة فنية.

لكن لقد ألفتك يا صديقي ! فقد كنت ذاتها الثانية في عزلتها، أو لربما روحها التي ستنفصم عنها يوما ، وهذا إن بقيت حية ... و كل هذا ، وكامتنان لك، فقد شعرت من أعماق كيانها أن العائلة لا تناسبك ،الحب لا يناسبك ،لم الشمل لا يناسبك... و كنتيجة، الوحدة هي ما يناسبك.

فكرت و دبرت ،و لفرط ما كانت تصل الى نهاية مسدودة ،لجئت الى أشياء أخرى ! —سأشرح لك ذلك ...

هي لن تقدر على قتل زوجتك و لا أبنائك و لا مرضاك أو التخلص من محيطك الاجتماعي لكي تعيش وحيدا، منعزلا مثلها ، وإنما رأت في ذلك نفسها، أن تتخلص من نفسها ، أن تقتل نفسها ،وذلك لإسعادك ! ;وهذا حس منطقها المتوحد، و قد وصلت في الأخير ،كنهاية لمحنتها ،أن تجعلك تعيش حياتك الجديدة أو ما تبقى من حياتك في مكان منعزل، خال ... فكان ذلك السجن.

لكن ،اعذرني إن تصرفت بوقاحة ، فهذه القضية حتمية أكثر مما ينبغي، و فعلا لقد فشلت أنت في تدبيرها و التخلص من تلك المريضة .

سأخبرك أيضا عن عقول و أجساد يقطن فيها العبث بجوار الحياة، فأصبحوا مسرعين طامعين لتحرير أفكارهم. فقد كان مسيحيوا الحبشة، ينظرون الخلود في الموت ... بحثوا عن سبب يتوخوا منه ذلك ، وفي عهدهم ذاك، كان هناك مرض فتاك وفر عليهم عناء البحث : إنه الطاعون ،وكانقياد لتلك الأفكار المعروكة، كانوا يتمرغون في ثياب المصابين بالمرض ،ليموتوا ميتة أكيدة و ليروا الخلود. مع انهم لم يروا يوما أحد أولئك المطعونين الميتين قد عاد ليخبرهم كيف كان الخلود ؟ أو الجحيم غالبا ! و بالفعل لقد انتشرت أفكارهم و أصبحوا متلهفين لذلك... تذكر يا صديقي ، أنت دكتور ،دكتور نفسي ،و تعرف أن الأفكار الضالة تنتشر بسرعة و بنجاعة... أنظر معي الاشاعات."

-"نعم، نعم إنك على حق " قال رؤوف بقناعة.

-و في الوقت نفسه ،سمع رؤوف نوعا من التمتمة الغامضة ،التي يبدو أنها تستجيب لكلام عماد :

-" لقد نجحت في جرك إلى وحدتها نوعا ما. إني اظن أنها كتبت رسالة انتحار وأخفتها، تخبر فيها أنك استدرجتها لتقتلها ،فلو فتشت جيوبها لوجدتها حتما ! " كان عصام منقبض الملامح يتكلم.

أصبح رؤوف كالفقير المسكين ،يحس نفسه عاجزا أمام كلام رفيقيه، فكل تلك الثقافة ،ذلك العلم، النباهة ... أزيحت ليشغل وضعها الذهول !

:

-" و كيف لك أن تعرف كل هذا يا عصام ؟ "

أجابه عصام و هو يحك عينيه من النعاس " لقد رأيته في أحد الأفلام "

-" حسنا ،ولكن كيف ستسمح لي نفسي بتفتيش ملابس شخص ميت ؟"

ضحك عصام ضحكته الشنيعة المعتادة ثم قال :

-" أيها الاحمق، إنها لم تمت هباءًا كما ماتت والدتي و زوجتي ... إنها أضحية، أنا لا أعلم من أي طائفة وثنية هي ... أو ربما لا تنتمي الى أي طائفة ... فقط اسحب هذا الكلام الأخير (و كان يبدو عليه أنه لم يفهم شيئا من كلام عماد)."

تساءل رؤوف في نفسه ثم قال متحسرا : " أين كنت ترى الأفلام ؟ "

-" أووه ، في السينما ... إنني إنسان يرتاد السينما.. اسحب معتقداتك بعيدا من فضلك ! "

-" و فجأة، أصبحت مؤدبا... من فضلك؟ أين تعلمتها ؟ " يقول له رؤوف و قد بدأ قلبه يملأ نورا و رقة .

- " لقد تعلمتها من زوجتي ... " صاح عصام.

و وسمت الكآبة الخرساء على جميع من في الزنزانة بعد كلام عصام، وذلك طبيعي –لأن قلبه دائما ما يكون مفعما بالإثم و المخاوف و قلة الأدب !

الفصل الثالث عشر

دقت الساعة معلنة الثانية صباحا، كان هواء بارد يدخل من النافذة الصغيرة و من تحت العتبة ،يتغور في الزنزانة ،جعل ضوء الشمعة المثبتة على قعر كأس ينحني متقلصا ،فتتصاعد رائحة الشمع مخلوطة برائحة الرطوبة والأغطية الكثة و سط صدى السعال الشديد... و مثل تماثيل الجبص يبست السنتهم من شوق المنظر فسكتوا !

لقد أحبوا بعضهم ،تضامنوا مع بعضهم، حملوا هم بعضهم. كان البكاء و النحيب من سمات المشهد، و بالإمكان القول ان الأيام في السجن كانت تمضي اسرع، يدني كل رجل من نهاية محنته، نهاية سجنه.

كانت عينا عصام تتجهان نحو عماد، و يداه اللتان توطتا في الدنس ،قد ضعفت و ارتجفت و صارت تمسح الدموع ; أما رؤوف فكان قد أخرج خرقة بالية من جيب قميصه كان يمسح بها أنوفه من المخاط الذي احتل جيوبه الأنفية ،أصبح يمسح بها دموعه الآن، ثم مدفوعا ببسالته، كبريائه، ...

-" تصبح على خير صديقي، غدا ستخرج ! "

-" نعم ، تصبحوا على خير... "

كان الشتاء يملأ الأزقة بالصيحات و بالعتمة ، و كانت الساعة التاسعة، و الصباح يتفتح معلنا عن هدوءه و برودة جوه . وكان عماد يحتفل في صمت لخروجه من السجن !

إنه واقف الآن في باب حياة جديدة لم يعد يعرف عنها شيئا ،جعلته كبصير يتلمس بيده رباط كلبه الذي يسمع لهاثه قريبا و بعيدا ... فيناديه، فيأتي الكلب يجر قوائمه و تفوح منه رائحة النتانة !

لقد خسر تقريبا كل شيء – بالأحرى ،ما تبقى له ،لأنه قد خسر حبه، اجتماعه، كبريائه ... مسبقا. كلها عرجت الى الهاوية . وبعد تفكير هادئ، انحدر بين الشوارع يهيم ، ينظر عن يمينه و شماله ،يسترد الأزقة و الضواحي التي غاب عنها لمدة ستة اشهر ، فكانت تبدو له كما هي ،لم تتغير . الناس هم الناس ، العجائز هم العجائز ،يجلسون أمام بيوتهم يرقبون أصناف البشر بغبطة و يتحسرون لأيام الشبيبة التي غابت . الأطفال هم الأطفال ، يركضون في الأرجاء و العرق يتصبب منهم بسخاء ، يلعبون ألعابا تقوي غرائزهم البدائية وتنفخ عن جمر الغضب داخلهم ، حيث انها لم تكن تنتهي بخير – و بطبيعة الحال، الغلبة للأقوى، الذي يحمل قاموسا بذيئا و يملك أيادي ضخمة أيدي الوحوش تلطم الوجه كامله مع ترك فراغات بيضاء ينزاح منها الدم بروية.

بعد هنيهة، وجد نفسه عن طريق تداعي الأفكار أمام صديق قديم له يعرفه من سنوات الجامعة و هو رجل ثلاثيني متزوج ،يظهر على وجهه اللطف والاحسان ،فلم يتوانى عماد عن مقابلته في المقهى الذي كان يجلس فيه ساقا على ساق ، يشرب كأس القهوة بتهذيب مبالغ فيه ،فانكفأ عماد جالسا قربه ...

-" مرحبا "

-" اه، عماد لم أرك منذ زمن بعيد .. سحقا للزمان الذي وارانا عن الأنظار"

-" نعم ، إنه العمل و... بعض المشاكل البسيطة "

فحدق فيه الرجل فبدا الخجل يداهم عماد، و يزحف فوقه ،فجعله ذلك الشعور يمرر حقيبته الضخمة التي جمع فيها ما تبقى من ثيابه بين رجليه ببطء و يتمنى لو أن الأرض فتحت و ابتلعتها !!

فقال الرجل و يبتسم " ما بالك يا عماد ؟ لم تعد كما عهدتك ! أتعرضت فعلا لمشاكل ؟ "

-" حسنا ، حسنا ، لقد دخلت السجن"

-" يا اسفاه، ماذا حل بك ؟ ماذا فعلت ؟ " و قد ثار الرجل على الطاولة الصغيرة حتى تقلقل فنجان قهوته ، و تبدلت ملامحه من ملامح عطف وإحسان إلى ملامح أنانية و كدر.

-" فقد قمت بشيء متعلق بالخيانة الزوجية ... " قال عماد بأدب.

في هذه اللحظة الحرجة، يسعى عماد الى السلام و تهذيب النفس ، فذهب الى الآخرين ليمنحوه إياه ، لكن هذا المنافق وقف مذعورا من على طاولته ، يتحسس خاتمه الفضي بأنامله و كأنه أصبح يخاف على زوجته إن استضاف هذا الموجوع قلبه في منزله ، فدس ذلك الرجل يده في جيبه وأخرج عشر دراهم رماها على الطاولة من بعيد .

كانت الألفاظ تصعد خارقة ، مسرعة من أعماق نفسه : " نعم ، نعم .. اعذرني الان، إنها الساعة .. لدي بعض الضيوف واجب أن ألقاهم .. أتمنى أن ألقاك عاجلا "

ثم بدأت نفس عماد تخبره بشيء ، تخبره بأن هذا الرجل الذي لا تعتلي وجهه أية شفقة، يتمنى ألا يلقاه أبدا ! و ربما هو الآن، يدعي في نفسه بأن يضمحل عماد من الوجود بحادثة من تلك الحوادث التي تحدث بغتة، ولكن عماد لم ينبس ببنت شفة، إذ ان أفكاره تقف أمامه محتارة محاولة تجسيده بالألفاظ و لكنها لا تستطيع .

كان الزمن يمر ببطء، يعم الهدوء الكئيب على الشوارع و المنازل وكان عماد يرى البرد يمسك به و يبطش به، فشد على حقيبته و أكمل مسيره. بدأ يسرع في المشي طلبا للدفء وقتل بعض الوقت الذي يمشي متباطئا، متمايلا كأنه يستعرض قوامه، يضرب ذراعيه و يحك يديه الحمراوين المتصلبتين التي لم يعد يشعر بوجودهما. و ظل مندفعا الى الأمام جائعا وحيدا، وجهه مصفر من القنوط و من غرابة الواقع حتى رأى حديقة، أرخت الشمس أشعتها الذهبية عل مقاعدها الخشبية ،فجلس في أحدها ثم أخرج خبزا مطليا بالمربى و بدأ في التهامه حتى طرق أذنيه مواء عنيد يبعث فيه الرغبة بالأكل واقفا. فأصبح يخيل له أن القطط تأكل و لا تشبع، لا تنفع بشيء، مجرد حيوان بفرو أملس رطب يجوب الشوارع و ينام على الكراسي.. أصبح المواء يتصاعد شيئا فشيئا و يحرك العواطف الجميلة في نفس عماد ،و يعيد نسج وتر من أوتار قلبه المتقطعة .فرمقه عماد بنظرة أكثر إيلاما وعطفا فتراجع ذاك القط الذي صعد الكرسي بقوائمه الاسفنجية ..لكنه لم يستسلم إذ توقف عن المواء و لجأ الى أسلوب التودد و الإحتكاك بالبشر المعروف منذ العهود القديمة. فقد أخذ ذلك القط يحك فروه الناعم على معطف عماد و يؤدي حركات آية في الإستنجاد فضحك عماد بشفته اليابستين بردا ،و قال " يا لهم من محتالين " ثم رمى له بقطعة من خبزه، أخذ القط يشمها ثم شرع في لحس المربى منها، و بعد ما فرغ ترك الخبز مجردا على الأرض بدون طعم و عماد على كرسيه وحيدا.

بعد ساعات، بدأت المدينة تستعيد شيئا من نشاطها، ضوضاء و بشر وصبايا و عجائز، فبدأ كل شيء يتضح لعماد الذي فاجأ الوحدة نائمة فاستيقظت معكرة المزاج ٠ اتضحت المشكلة فأدرك بكل بساطة و ثقة أنه بحاجة الى عالمه القديم الذي أخرج منه توا، في حاجة الى السجن الذي يغطي آلامه و يدسها في ظلمته. لم يعد يأبه للحياة و ما فيها، فيقول في نفسه " لقد حان الوقت لأجد مكاني، و استأنس بوحشتي... " فاستهوته حينذاك أفكاره الشيطانية إلى فعل شيء شرير فيرتكب جريمة سرقة أو قتل أو ... و بعد وقت ليس بمحدد، تعبت أجفانه من النظر الى وجوه الملأ العابسة فقرر الذهاب لشقته لينام "

الفصل الرابع عشر

كان إحساس عماد بالاجتماع عجيبا ،حيث إن الوحدة لم تثر فيه الرغبة في الإنفراد و الإبتعاد عن وجوه الخلق ،بل حزنا ثقيلا ،و إن كان لطيفا.

لكنه نام تلك الليلة ملء جفنيه... غير أنه فهم ذلك المساء، أن الوحدة لم تصبح تؤثر فيه ، لأنه هزم الأشياء و غلبها لا يكمن في الهروب وتفاديها، بل في مواجهتها ! مواجهة الوحدة.

كان الصباح يصعد بسرعة كبيرة و شقته تتلقى سهام الضوء الأبيض المحيي. استيقظ على صياح أحد الباعة المتجولين فأخذ يحس بالتدريج ما يحسه الواحد من الطمأنينة بعد يوم كامل من السباحة في الشلالات الباردة مياهها ، جعله ذلك يزدري الإرهاق ويسعى إلى الجلبة و النشاط.

خرج من شقته، يلقي بخطواته هنا و هناك ليتخلص من برودة السجن التي ما زالت تعطل مفاصله فتجعل مشيته ثقيلة.

و بين العزلة و ضميره، بين عذابه الحقيقي و أوهامه، ناداه إحساس جميل اكثر من غيره في الفناء ،أخذ يترك فيه طبعا حادا محرقا يتأكله ، فاستخرج ذلك الخاتم و أيقظ معه أشباح الماضي الميت ، فوجد من جديد غيثة التي جعلت الزمان يكرهها و قد يعيفها :عذبها زوجاها و أبنائها الأربعة زيادة الى عائلتها التي لا جدوى فيها من تشكيل سعادتها و لم شتاتها ... في تلك اللحظة عينها، تذكر رقية أيضا لكن سرعان ما داهمته ذكرياتها بصداها الحار ،تخلى عن ذلك و أخذ يقلب الفكر في شيء اخر.

و فيما هو بالشارع حتى مر بدكان علقت عليه لافتة " زهور ندية لعشاق

و فيما هو بالشارع حتى مر بدكان علقت عليه لافتة " زهور ندية لعشاق الصبحية " فدخله و اشترى منه حزمة من ثلاث ورود بلون أبيض ثم هم في خطاه إلى أجل ...

ثم يمر وقت غير محدد ،يخيم فيه سكوت و تربص عميقين تمهيدا للالتقاء المنتظر. وقف عماد أمام باب سجن ... دخله بدعوى الزيارة، فقاده أحد الحراس إلى غرفة صغيرة تتعالى فيها الأصوات مختلفة . فأخذ مقعده على طاولة من كرسيين و أخذ ينتظر ...

و بعد مدة ليست بقصيرة ، حدث مشهد استيقظت لأجله خواطرعماد ، و هذا الشخص الماثل أمامه الذي يبتسم ابتسامة خفيفة ندية هو مألوف ألفة الشرايين للدم.

-" مرحبا بك يا عماد " قالت غيثة .

-" نعم ، لا شكرا "

-" أنا أقدر مجيئك فعلا ، و الله إنني لم أتوقع أن أراك هكذا تزورني بينما عجز والداي عن ذلك . إني ممتنة لك ... "

-" لا بأس ، أنا أيضا لم أتوقع أن أزورك ،لكنني خرجت من شقتي هذا الصباح ف ... ثم وجدت نفسي أمامك " يقول عماد و قد اعتلته ابتسامة عذبة.

-" كم هذا لطيف "

ثم بعد ذلك ،أتت اللحظة التي يفلت فيها كل سيء ليتحقق الجميل باهيا منيرا . و أمام عالم ضعيف و قوي ، أضعفته الذكريات و قوته أواصر المحبة، أخرج عماد تلك الورود الثلاث من بين فخذيه ووضعهم على الطاولة ثم قال و كلامه ينذر بالجد :

-" هذه الورود من أجل سنواتك الثلاث ،... سأنتظرك !! ".

تمت

https://www.facebook.com/xdrake.irrazi.1